المجلد السادس عشر ١٨٤، ١٨٣ الجزء الثالث والرابع

مجلة المجمع العلمي العربي

أنشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١ م
تنشر في دمشق مرة في الشهر

آذار ونيسان سنة ١٩٤١ م
ربيع الأول وربيع الآخر سنة ١٣٦٠ هـ

دمشق

المجمع العلمي العربي

قيمة الاشتراك السنوي { في سورية ولبنان ٣٠٠ قرش سوري
الدفع مقدماً { وفي جميع الأقطار ٤٠٠ " "

مطبعة الترقي بدمشق


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ابن عُنَين

شاعر القرن السابع

هو محمد بن نصر الدين بن نصر بن الحسين بن عُنين الأنصاري ، وعنين بضم العين المهملة وفتح النون وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون ، كنيته ابو المحاسن ولقبه شرف الدين . أصله من الكوفة وولد في دمشق ومات فيها (٥٤٩ — ٦٣٠ هـ)

تأدب ابن عنين بأدب عصره واخذ عن مشايخ بلده ما تيسر له أخذه . اشتغل في دمشق بالفقه على القطب النيسابوري والكمال الشهرزوري ، وقرأ الأدب على أبي الثناء محمود بن رسلان وسمع ببغداد من منوجهر بن تركانشاه راوي مقامات الحريري ، وعني كثيراً باللغة حتى عدّ من علمائها في عصره ، وكان يستحضر كتاب الجمهرة لابن دريد وقد اختصره ، وكتب في النثر تاريخ العزيزي ، وقد فقد كلا التأليفين .

وجاء من ابن عنين شاعر مطبوع يجول في اكثر اغراض الشعر وجوّد في جولاته وموضوعاته فعدّ من اعظم شعراء زمانه ، وشعره في الوصف والشعر العاطفي آية ، واشتهر بين الناس بهجوياته . واذ لم يكن له غرض في جمع شعره لم تسمُ همته الى تدوينه ، فهو يوجد مقاطيع في ايدي الناس . وقد جمع له بعض اهل دمشق قديمًا ديواناً صغيراً لا يبلغ عشر ما له من النظم الرائع ، وقيل ان فيه اشياء ليست له .

طار صيت ابن عنين بهجوياته ، وما كان ينجو من هجوه كبير ولا صغير . وشعره في الهجو خال من الاقذاع في الجملة ، وربما ضحك المهجوّ منه وساءه بما قال وافترى . وله في باب الاهاجي قصيدة يداعب فيها جماعة من الدمشقيين ، وهي القصيدة المعروفة بمقراض الأعراض افتتحها بقوله :

أضالع تنطوي على كرب ومقلة مستهلة الغربِ
شوقاً الى ساكني دمشق فلا عَدَت رباها مواطر السحب
منازل ما دعا تذكرها الا ولبى على النوى لبي

وقد ذكر فيها جماعة بأبشع الأوصاف وختمها بقوله :

وحين أبصرت دولة الأحـ ـدب أربت على علا الشهبِ
فقلت للمفلسين ويحكم تحادبوا فهي دولة الحُدْب

هجا ابن عنين العلية من قومه ومنهم المؤيد بن القلانسي والجمال بن المهدي الكاتب والقاضي ابن عصرون والقاضي الفاضل وزير صلاح الدين وكاتبه. وكان وقوعه على ما يظهر في القاضي الفاضل سبباً اعظم في غضب صلاح الدين عليه، فأمر بتسييره من دمشق بسبب وقوعه في الناس ونفاه الى اليمن فمدح صاحبها طغتكين من اخوة صلاح الدين. طاف شرف الدين البلاد من الشام والعراق والجزيرة واذربيجان وخراسان وغزنة وخُوارَزم وما وراء النهر، ثم دخل الهند ورجع من طريق الحجاز الى الديار المصرية، وقد مات صلاح الدين وتملكها اخوه الملك العادل ابو بكر بن ايوب، فسار متوجهاً الى دمشق وكتب اليه قصيدته الرائية يستأذنه في دخول الفيحاء ويعدد ما قاساه في الغربة، قال في الوفيات : وقد احسن فيها كل الاحسان، واستعطفه ابلغ استعطاف، وأولها :

ماذا على طيف الأحبة لو سرى وعليهم لو سامحوني في الكرى

وصف في أوائلها دمشق وبساتينها وانهارها ومواضع متنزهاتها ومما قال :

فسقى دمشق ووادييها والحمى متواصل الارهام منفصل العرى
حتى نرى وجه الرياض بعارض أحوى وفَوْدالدَّوح ابيض ازهرا
تلك المنازل لا ملاعب عالج ورمال كاظمة ولاوادي القرى
أرض اذا مرت بها ريح الصبا حملت على الأغصان مسكاً أذفرا

ثم عاد مشيراً الى النفي منها :

فارقتها لا عن رضاً ، وهجرتها   لا عن قلىً ، ورحلت لا متخيرا
أسعى لرزق في البلاد مشتت   ومن العجائب ان يكون مقترا
وأصون وجه مدائحي متقنعاً   وأكف ذيل مطامعي متسترا

ومنها يشكو الغربة وما قاساه فيها :

أشكو اليك نوىً تمادى عمرها   حتى حسبت اليوم منها أشهرا
لا عيشتي تصفو ، ولا رسم الهوى   يعفو ، ولا جفني يصافحه الكرى
أضحى عن الأحوى المريع محوّلاً   وأبيت عن ورد النمير منفرا
ومن العجائب أن يقيل بظلكم   كل الورى ونبذت وحدي بالعرا

قال ابن خلكان وهذه القصيدة من أحسن الشعر ، وعندي أنها هي خير من قصيدة ابي بكر بن عمار الأندلسي التي أولها : « أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى » ، ولما نفي من دمشق قال :

فعلام أبعدتم أخا ثقة   لم يجترم جرماً ولا سرقا
أنفوا المؤذن من دياركم   ان كان ينفى كل من صدقا

ولما عاد اليها وتقدم بها عند المعظم قال :

هجوت الأكابر في جلق   ورعت الوضيع بهجو الرفيع
وأخرجت منها ولكنني   رجعت على رغم أنف الجميع

ووصل به الحال ان هجا بعض الملوك الأيوبيين ، فانه لما ورد من اليمن الى مصر وطلبوا منه موجب ما ورد معه ، قال يهجو الملك العزيز صاحبها :

ما كل من يتسمى بالعزيز لها   أهل ولا كل برق سحبه غدقه
بين العزيزين بون في فعالهما   هذاك يعطي وهذا يأخذ الصدقه

وقال في العادل سيف الدين بن ايوب :

ان سلطاننا الذي نرتجيه واسع المال ضيق الإنفاقِ
هو سيف كما يقال ولكن قاطع للرسوم والأرزاق

وهذا هجو خفيف على القلب غير ثقيل على السمع ، لا بذاءة فيه ويحمل نكتة لطيفة . وهنا يعرض على الخاطر لماذا شق على الشاعر ان يطلع عمال المكوس على مافي متاعه ، وقد آب من سفرته هذه أبجر الحقائب ، وجمع من جوائز صاحب اليمن وجوائز غيره اموالاً اتجر بها فقدروا ما تموَّله بثلاثين الف دينار ، ومن كان يملك هذا وهو في عقل ابن عنين ومعرفته ، لا يشق عليه ان يدفع حق الدولة ، هذا ان لم يكن ممن اعتادوا الأخذ ولا يعرفون العطاء ، ولا يرون ابداً غير الزيادة في وفرهم .

قال من ترجموا لابن عنين : انه كان من اظرف الناس واخفهم روحاً واحسنهم مجوناً ، وكان وافر الحرمة عند الملوك ، ولما عاد الى دمشق تولى الوزارة بدمشق في آخر دولة الملك المعظم ومدة ولاية الملك الناصر ، وانفصل منها لما ملكها الملك الاشرف ، قال الصفدي في الوافي : انه لما ولي كان محمود الولاية ، كثير النصفة ، مكتوف اليد عن اموال الناس ، مع عظم الهيبة . فمن يخطبه الملوك لتولي أمور الدولة ، فيه ولا شك شيءٌ من أخلاق العظماء ، وليس هو بالشاعر الذي يجوز لنفسه ان يمد كل حين يده لمن يفضل عليه بشيءٍ ، وأخلاق الشعراء غير اخلاق الأمراء .

لا جرم ان ابن عنين آلم بهجوه بعض المشهورين ، وما استطاعوا ان يصموه الا بما جرت العادة ان يصم به الخصم خصمه ، واهم ما وصموه به تكفيره وتبديعه وتفسيقه ، فقالوا انه كان يخلُّ بالصلاة ، ويصل ابنة العنقود ، واشتد بعضهم واوغل فرماه بالزندقة ، وكل اولئك تهمات سهلة النطق على الناقمين والموتورين ، ولو كان كما زعموا زنديقاً ما عمر مسجداً بأرض المزة مزة كلب واوصى أن يدفن فيه ،

ولو كان منحلاً من العقيدة ما اختاره ملكان عظيمان للوزارة والملوك من أخوف الناس من الرأي العام واعداؤه وابناؤهم واحفادهم يحصون عليه انفاسه .

ولا نعتقد نفرة بعضهم منه الا بسبب هجائه لهم، وهجوه ينبعث على الأغلب من نكتة اذا جاءته ارسلها . ولو كانت في عظيم لا يستحقها وتؤذيه فيحنق عليه بها . ولو كان يحسب لكل ما يبتده من شعره حساباً لما هجا القاضي الفاضل، وهو اعظم رجال عصره في السياسة والادب، ومن أشرف رجال الدولة على التحقيق . نعم أخذ كما قال ياقوت، في الهجو بنفس طويل، وتفنن بأساليب السب والثلب، فأورد مالا يحسن ايراده حتى لقد هجا أباه ايضاً بقوله

وجنبني أن أفعل الخير والد ... ضئيل اذا ماعد اهل المناسب

بعيد من الحسنى قريب من الخنا ... وضيع مساعي الخير جمّ المعايب

اذا رمت ان اسمو صعوداً الى العلى ... غدا عرقه نحو الدنية جاذبي

ونحن نشك كثيراً في نسبة هذا الهجو له، ولعل هذه الابيات مما نحله اياه اعداؤه وخصماؤه . وممن هجاه، والغالب انه كان يتبرم بعشرته، ابن المهدي في جواب رقعة طويلة ارسلها اليه :

وردت منك رقعة أسأمتني ... وثنت صبري الجميل كلولا

كنهار المصيف حراً وكرباً ... وليالي الشتاء برداً وطولا

كان لشرف الدين دقة احساس الشاعر، وكان جهبذاً نقادة، وربما كان قومه يريدون منه ان يقرّهم على مساويهم، فما رأى غير اداته الشعرية يصوبها اليهم كل حين يشفي بها صدره من انحطاطهم والتواء أخلاقهم، فمن ذلك قوله في الرشيد النابلسي، وقد صفع، يداعبه بل يثلبه :

تعجب قوم لصفع الرشيد ... وذلك ما زال من دابه

رحمت انكسار قلوب النعا ... ل وقد دنسوها بأثوابه

فوالله ما صفعوه بهـا ولكنهم صفعوهـا بـه

وقال يهجوه وابن شيث ويضيف نفسه اليهما :

انا وابن شيث والرشيد ثلاثة لا يُرتجى منا لخلق فائده

من كل من قصرت يداه عن الندى يوم الجدا وتطول عند المائده

فكأننا واو بعمرو ألحقت أو اصبع بين الاصابع زائده

وقال يهجو الموفق ابن مطران :

وقالوا اسعد بن الياس اضحى رئيساً لا حوته يد السعود

ولا اهجو الوجود وقد حواه لأن وجوده هجو الوجود

وقال يهجو ابن عساكر المعروف بخبز بدبس :

يا خليطاً بالدبس قصر عن الشـ ـر فقد قيل رابح الشر خاسر

وترفق بالجند فالجند آبا ؤك ان صح انك ابن عساكر

اذا صح الحكم عليه بهذه الأهاجي ، وما رأينا له في الموضوع الواحد غير البيتين والثلاثة ، ومعظمها مرتجلة على ما يظهر يوردها في مجلسه أو مع اصحابه ، واكثرها مما يتعمده للنكتة ، فلنا أن نقول انها تنوقلت بين القوم لسلاستها وخفتها على النفس ، ولطالما تنوقل الرديء المختصر وزهد في الجيد المطول ، والا فان لابن عنين قصائد ومقاطيع قالها في احوال كارثة كانت هي اولى بأن تشهره بين الناس ، وان يتناقلوها ويتدارسوها ، خصوصاً ما صدر عنه في غربته ، وقد طالت على ما يظهر ، وما كان يحمله رسائله الى اصحابه وغيرهم من هذا القبيل فقد قال من جملة قصيدة يذكر فيها اسفاره ويصف توجهه الى جهة المشرق :

أُشقق قلب الشرق حتى كأنني افتش في سودائه عن سنا الفجر

وقوله لأحد أصحابه بدر الدين مودود الشحنة كان بدمشق (مدير الشرطة) :

يذكرني البرق الشامي ان خبا زماني بكم يا حبذا ذلك الزمن

وياحبذا الهضب الابيل و«عزتا» اذا ما بدا والثلج قد عم القنن
أأحبابنا لا أسأل الطيف زورة وهيهات اين «الديلميات» من «عدن»

وقد ذكر «عزتا» غير مرة في شعره والغالب انها كانت مصطافه ولعلها كانت قرب الفيجة على ما يفهم من اماكن اخرى ، والديلميات من ضواحي دمشق ، وعدن بلد معروف في اقصى بلاد العرب . وكما هجا شاعرنا الرجال هجا البلدان أيضاً ومما قال في الهند :

واذا سقى الله البلاد فلا سقى بلد الهنود سوى الصواعق والدما

وقال في حلب سامحه الله :

قوم عهود رجالهم محلولة ابداً وعهد نسائهم لم يحللِ
من كل مائسة الثياب رشيقة رُود الشباب كريمة في هيكل

وقال في جامع دمشق لما سلسلت ابوابه وفيه نكتة بديعة .

سلوه اذا اجابكم سلوه عُجنَّ حتى سلسلوه
ولولا انكم بقر حمير لما منعوكم أن تدخلوه

وقال في المعنى :

لما رأى الجامع أمواله منهوبة ما بين نوابهِ
جُنَّ فمن خوف عليه غدا مسلسلاً في كل ابوابه
وكيف لا تعتاده خيفة وقد رأى المسخ لاربابه
القرد في شباكه حاكم والتيس في قبلة محرابه

مدح ابن عنين الملك المعظم في عدة قصائد وكان يذكره بيوم دمياط مع الصليبيين ومما قال :

وأذكرته أيام دمياط بيننا وبين العدى والموت تهوي عُقابه

وقال من أخرى :

غداة لقينا دون دمياط جحفلا من الروم لا تحفى يقيناً ولا ظنا
قد اتفقوا رأياً وعزماً وهمة وديناوان كانوا قداختلفوا لُسنا
تداعوا بأنصارالصليب فأقبلت جموع كأن الموج كان لهم سفنا

وقال في رثائه :

لولا دفاعك بالصوارم والقنا عن حوزة الاسلام عاد كما بدا
وديار مصر لو ونت عزماته عن نصرها لتمكنت منها العدا
ولأمست البيض الحرائر كلها فيهـا سبايا والموالي اعبدا
ولأصبحت خيل الفرنج مغيرة تجتاب ما بين البقيع الى كُدا
وبثغر دمياط فكم من بِيعة عُبد الصليب بهاوكانت مسجدا
انقذتها من خطة الخسف التي كانت احلتها الحضيض الاوهدا

ومدح فخر الدين الرازي وسيرها اليه من نيسابور الى هراة ، ولما كان بخوارزم حضر يوماً درس هذا الامام العظيم ، وكان يوماً بارداً سقط فيه الثلج ، فبينما الشيخ يلقي الدرس اذ سقطت حمامة بالقرب منه ووراءها طير من الجوارح يطاردها ، فلما صارت بين الناس خاف الجارح وطار ، ولم تقدر الحمامة على النهوض مما لحقها من الخوف والبرد ، فرقّ لها الامام فخر الدين وأخذها بيده وحَنَى عليها فأنشده ابن عنين مرتجلاً :

يا ابن الكرام المطعمين اذا شتوا في يوم مسغبة وثلج خاشفِ
العاصمين اذا النفوس تطايرت بين الصوارم والوشيج الراعف
من نبأ الورقاء ان محلكم حرم وانك ملجأٌ للخائف
وفدت عليك وقد تدانى حتفها فحبوتها ببقائها المستأنف
ولو انها تُحبى بمال لانثنت من راحتيك بنائل متضاعف
جاءت سليمان الزمان بشكوها والموت يلمع من جناحي خاطف

فرم يطاردها فلما استأمنت بجنابه ولى بقلب واجف

فطرب لها فخر الدين واستدناه واجلسه قريباً منه وبعث اليه لما قام من مجلسه خلعة ودنانير كثيرة وبقي دائماً محسناً اليه .

ومن نكاته الشعرية انه شهد في بغداد مسألة عرضت على القاضي فما اخلى حكمه فيها من لاذع تنكيته ، وذلك انه كان بمدينة السلام رجل له زوجة ويتردد الى الزوجة شاب تزعم أنه اخوها ، فجاء الزوج بعض الايام فرآه معها فمنعه من العبور الى بيته وتحاكما على دعوى الزعم فلم يمنع المذكور من الدخول اليها ، وكان اسم العاشق غياث واسم الزوج عمرو . ولم يستطع الزوج طلاقها لحبه لها فقال ابن عنين :

غياث فاسمعوا قولي وعمرو لهم عندي احاديث ظريفه

فزان ما عليه من جناح وقواد بتوقيع الخليفه

وقال فيهما أيضاً :

غياث وعمرو فاسمعوا ما عملته لشيخين عندي من شنار هما شانُ

غياث نفى عن نفسه الحدّ في الزنا وعمرو بتوقيع الخليفة قرنانُ

حركت الغربة في شرف الدين أشرف عواطفه ، واهاج البعاد دقيق أحاسيسه ، وتجلت صورة نفسه يوم أقصوه عن أرضه وأهله ، كأن السلطان ما نفاه عن بلده الا ليتغنى به ويتغزل بطبيعته الفتانة ، وليعرف الناس تفوق بلاده على غيرها في كل ما تحبو به الطبيعة الاصقاع والبقاع . كان ذلك هجيراه في كل مكان نزله ، وفي كل قصيد قصده ، والفضل في كل ذلك لمن نفاه فنفعه ونفع الأدب به ، قال من قصيدة يمدح بها صاحب اليمن السلطان طغتكين :

فأقبلت اجتاب البلاد كأنني قذى حال دون النوم في اعين رُمد

فلم يبق حزن ما توقلت حزنه ولم يبق سهل ما جرت به بردي

اكد ويكدي الدهر في كل مطلب فيابؤس دهري كم اكد وكم يكدي
طريد زمان لم يجد لصروفه بغير ذرى الباب العزيزي من ورد
فلما استقلت في ذراه بي النوى وألقت عصاها بين مزدحم الورد
تنصل دهري واستراحت من الوجى قلوصي ونامت مقلتي وعلا وجدي

قال في مطلع قصيدة يمدح بها السلطان المعظم شرف الدين عيسى بن ابي بكر ابن ايوب :

اذا جبل الريان لاحت قبابه لعيني وبانت من سنير هضابه
وهبت لنا ريح أتتنا من الحمى تحدث عما حملتها قبابه
وقامت جبال الثلج زهراً كأنها بقية شيب قد تلاشى خضابه
ولاحت قصور الغوطتين كأنها سفائن في بحر يعب عبابه
لثمت الثرى مستشفياً بترابه ومن لي بأن يشفي غليلي ترابه

وقال يتغزل ويتشوق الى دمشق :

الا خبروني عن حمى «تل راهط» يلذ به سمعي وان فاتني النظر
وقصوا أحاديث «المصلى» وأهلها علي فما لي في سوى ذاك من وطر
لقد طال عهدي بالمصلى وليتني رأيت المصلى او سمعت له خبر

وقال من قصيدة يمدح طغتكين :

ومحال قولي لنفسي عزاء مسرعة السير شيمة الأقمار
لو تخلى القطا لنام ولو خليت لم أرم عن وجاري وجاري
ولو اني خيرت في هذه الدنيا لما اخترت غير قومي وداري

وقال متغزلاً يتشوق الى دمشق :

يا برق حي اذا مررت بعزتا أهلي وان زادوا جفا وتعنتا
أبلغهم عني السلام قل لهم أحبابنا هذا الصدود الى متى ؟

طال انتظاري للتلاقي فاجعلوا اصدودكم أجلاً يكون موقتاً

وكتب من بلاد الهند الى اخيه بدمشق هذين البيتين والثاني منهما لأبي العلاء المعري استعمله مضمناً فكان احق به وهما :

سامحت كتبك في القطيعة عالماً أن الصحيفة لم تجد من حاملِ

وعذرت طيفك في الجفاء لأنه يسري فيصبح دوننا بمراحل

وعلى الجملة فان ابن عنين شاعر عظيم بل هو كما قال ابن خلكان خاتمة الشعراء لم يأت بعده مثله ولا كان في اواخر عصره من يقاس به ، ولم يكن شعره مع جودته مقصوراً على أسلوب واحد بل تفنن فيه ، وكان غزير الأدب من الأدب ، ومطلعاً على معظم أشعار العرب ، وكان له في عمل الألغاز وحلها اليد الطولى ، فمتى كتب اليه شيء حله في وقته ، وكتب الجواب أحسن من السؤال نظماً . رحمه الله .

محمد كرد علي

——>000<——

الترب والمدافن الخاصة في الاسلام

اعتنى الانسان منذ آلاف السنين بالقبور والمدافن والبناء عليها ، خصوصاً مدافن الملوك والعظماء ، فأهرام مصر ومدافن الحثيين والآراميين والانباط والرومانيين لا تزال حتى اليوم ماثلة امامنا ، وما تزال الحفريات العلمية تكشف لنا بين آونة واخرى عن قبور ومدافن قديمة كانت مجهولة لدينا

جاء الاسلام فلم يعتن بالقبور والمدافن والبناء عليها ، وكان رأيه فيها « خير القبور الدوارس »

وامتزج الاسلام بعد ذلك بكثير من الشعوب ، ودخل كثير من ابناء هذه الشعوب في الاسلام ، فكان ان اصبح على قبور عظماء المسلمين من ملوك وامراء وعلماء واعيان مصانع شاهقة ذات قباب فنية رائعة عرفت بعد ذلك باسم الترب « جمع تربة »

والذي يترجح لدي ان هذا الطراز من البناء اخذ عن اصل فارسي ، فقد كان بظاهر الكوفة قريباً من قبر الامام علي بن ابي طالب قبتان جميلتان تحت كل قبة قبر نسج المؤرخون حولها قصة [1] فقالوا ان الذي بناهما هو المنذر بن امرئ القيس بناهما على قبري نديميه اللذين امر بقتلهما وهو سكران ، فلما أصبح وأُخبر بالذي أمضاه ندم على قتلهما وبنى عليهما طربالين ، وجعل لها في السنة يوم بؤس ، ويوم نعيم حزناً عليهما ، وكان هذان الطربالان يلطخان بدم من يقتل يوم البؤس فلذلك لقبا بالغريين [2] ايضاً لما يلطخ بهما من دماء

ومهما يكن من امر بناء هاتين القبتين فهما من العصر والطراز الفارسي ، وقد بقيتا الى العصر العباسي في النجف قرب قبر علي بن ابي طالب رضي الله عنه ، فلما مر الخليفة العباسي هارون الرشيد من ذلك الموضع وأُخبر ان هناك قبر الامام

---

(١) معجم البلدان لياقوت طبع مصر ج ٣ ص ١٨٣ و ١٨٤ وفيه أساطير طويلة تدور حول هاتين القبتين . (٢) الغريان تثنية الغري وهو المطلي بالغراء ، ولعل القبتين كانتا مطليتين بمادة تشبه الغراء أو نحوه فلما نسجت حولها هذه القصة زُعِمَ ان هذا الطلاء هو دم من يقتل يوم البؤس .

علي امر ببناء قبة على قبره وكان ذلك بعد سنة (١٧٠) هجرية . ويقول الحسن ابن محمد الديلمي : امر هارون الرشيد ان يبنى عليه قبة بأربعة ابواب فبنيت ، وذكر ابن طحال ان الرشيد امر ان تبنى عليه قبة فبنيت من لبن احمر وطرح على رأسها جرة خضراء وهي في الخزانة اليوم [١] .

لا ريب ان قبة قبر الامام علي هي اول قبة من نوعها في الاسلام ما دام لا يوجد لدينا نص يدل على ما هو اقدم منها ، ووجود الطربالين او الغريين قريباً منها يجعلنا نحكم بأن قبة الامام تأثرت بهما الى حد ما .

والظاهر ان مثل هذه القبة وضعت بعد فترة من الزمن على باقي قبور الأئمة من اهل البيت النبوي ، ثم شاع استعمالها في انحاء البلاد الاسلامية ، وتردد ذكرها كثيراً في كتب الطبقات والتراجم باسم التربة .

وقد عقد المقريزي في خططه بحثاً خاصاً بترب مصر [٢] كما فعل مثل ذلك النعيمي والعلموي [٣] والبقاعي في ترب دمشق [٤] ، ومحمد بن طولون في ترب صالحية دمشق [٥] .

معنى التربة والطربال

واذا طلبنا معنى التربة في كتب اللغة نجد صاحب المصباح يفسر التربة بالمقبرة مع ان التربة التي ترد في كتب التاريخ والتراجم والخطط لا يراد بها المقبرة او القبر وان كان في التربة شيء من معناهما ولكن يراد بها تلك القبب الفخمة التي تكون على قبور العظماء من ملوك وامراء وعلماء واعيان

(١) أعيان الشيعة ج ٣ ص ٥٨٧ (٢) ج ٤ ص ٣٤٨ و ٤٩ طبعة المليجي .

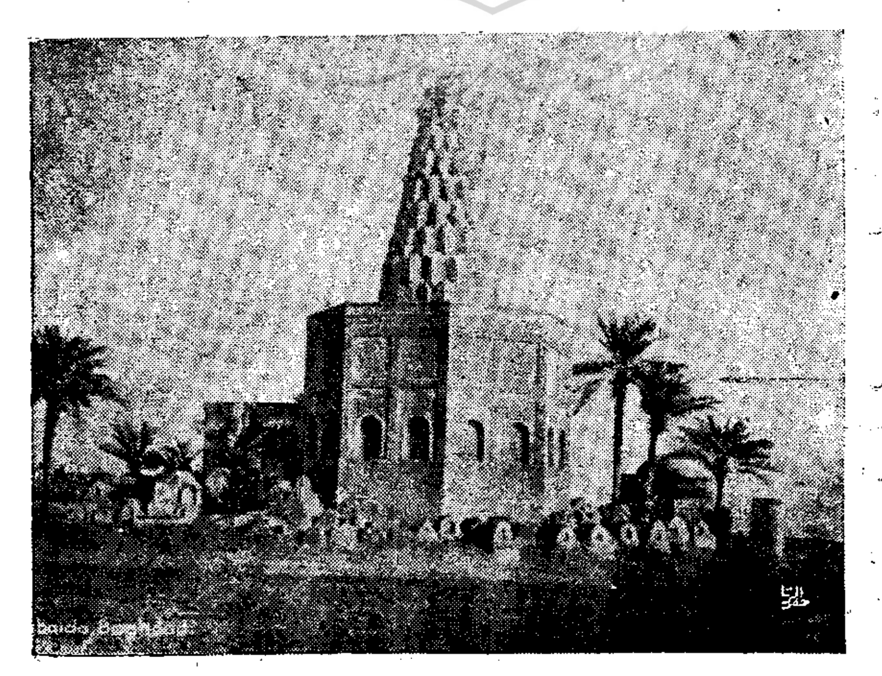
(٣) النعيمي هو عبد القادر النعيمي الشافعي ذكره في كتابه تنبيه الطالب وارشاد الدارس (مخطوط) ومنه نسخة في المجمع العلمي العربي بدمشق ، وبالخزانة التيمورية بمصر في دار الكتب المصرية ، والعلموي هو عبد الباسط بن موسى العلموي اختصر كتاب تنبيه الطالب وزاد عليه في بعض المواضع (مخطوط) ومنه نسخة عندي وبالمجمع العلمي العربي بدمشق وبالتيمورية بمصر .

(٤) البقاعي هو احمد بن احمد بن علي البقاعي الحنفي اختصر كتاب التنبية أيضاً ومنه نسخة عند السيد احمد عبيد بدمشق . (٥) له كتاب أسماء القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية . ومنه نسخة فوطغرافية في المجمع العلمي بدمشق وبالتيمورية بمصر .

والذي يترجح لدي ان لفظ التربة مأخوذ من الطربال الذي خفف بحذف آخره فصار طربا، وتداولته الالسن فظن بعد ذلك تربة للشبه القريب بين طربا وتربه في اللفظ والمعنى

واذ رجعنا الى معنى الطربال في كتب اللغة وجدناه هو المراد لما يقصده المؤرخون واصحاب الخطط من معنى التربة · ففي نهاية ابن الأثير : الطربال هو البناء المرتفع كالصومعة · وفي معجم البلدان لياقوت : الطربالان هما بناآن كالصومعتين بظاهر الكوفة قرب قبر علي بن ابي طالب رضي الله عنه · وحينما نرجع الى كتب اللغة نجدها اوضحت معنى الصومعة ايضاحاً كافياً · ففي القاموس : الصومعة بيت للنصارى لدقة في رأسه ، وفي اساس البلاغة : من المجاز قولهم للثريدة اذا رفع وسطها وحدد رأسه ودقق «الصومعة» · وفي المختار ثريدة مصمعة اذا دققت وحدد رأسها ، وصومعة النصارى من هذا لأنها دقيقة الرأس

وفي مقبرة بغداد قبة من رائع الفن العراقي ينطبق وصف الطربال عليها تمام الانطباق وهذه صورتها



ومنذ منتصف القرن الخامس الهجري اخذت الترب ترتدي ثوباً علمياً وتنطبع بطابع ثقافي فكان يضاف الى التربة مدرسة علم، او مكتبة مطالعة، او مكتب لتعليم الأيتام والاطفال، او مسجد للصلاة يكون فيه درس علم او قراءة قرآن، ففي سنة (٤٥٩) بنى شرف الملك محمد بن منصور الخوارزمي قبة[1] على قبر الامام ابي حنيفة والى جانبها مدرسة كبيرة للحنفية ولما تم بناؤها دعا اليهـا الفقهاء والعلماء والاعيان وأنشد الشريف البياضي الشاعر

الم تر ان العلم كان مبددا فجمعه هذا الموسد في اللحد

كذلك كانت هذه الارض ميتة فانشرها فعل العميد ابي سعد

والظاهر ان هذه المدرسة هي الأولى من نوعها حيث يقوم معهد علمي الى جانب قبر رجل عظيم تسمى المدرسة باسمه.

ومنذ هذا الوقت اخذت المعاهد العلمية تشاد الى جانب قبور العظماء، وهذا ما دعا اصحاب كتب الخطط ومؤرخي مدارس العلم لجعل فصل خاص بالترب لما لها من ناحية ثقافية.

جاء في ترجمة علي بن علي بن روزبهار بن باكير الكاتب البغدادي انه وقف كتبه بمشهد[2]

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٢١٨ و ١٩ المطبعة الأميرية، والنجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٥

(٢) المشهد اسم مكان من الشهادة، والشهيد هو من قتل في سبيل الله فكأن دمه المطلول يشهد له بجهاده، والذي يظهر لي ان هذه اللفظة استعملت أولا للبنايات التي شيدت على قبور أهل البيت، وان أول ما أطلق منها على مشهد الحسين رضي الله عنه حيث دفن بالمكان الذي استشهد فيه ثم على قبر أبيه الامام علي رضي الله عنه ثم على بقية قبور الأئمة حيث أن أكثرهم مات قتلاً أو سماً، ثم اتصل ذلك إلى أهل السنة فبنوا على قبور أئمتهم ومشاهيرهم مصانع دعيت بالمشاهد أيضاً كمشهد أبي حنيفة في بغداد، ومشهد الرفاعي في أم عبيدة، وتوسع رجال الشيعة وأهل السنة في هذا فكانوا يبنون مشاهد على غير قبور وينسبونها لاسم أحد المشاهير المتحقق دفنه ووفاته في بلدة أخرى، فاذا سئلوا عنها أجابوا بأنهم شاهدوا صاحب هذا الاسم بالمنام في هذا المكان وانه طلب ذلك منهم. ونشأ في العهد الفاطمي نوع آخر من المشاهد له صبغته السياسية، فكان الفاطميون إذا استولوا على الشام اظهروا قبوراً ومشاهد ونسبوها إلى أهل البيت، وإذا استولى العباسيون أو السلجوقيون أظهروا قبوراً ومشاهد ونسبوها إلى بعض الصحابة، ولذلك فكثير من قبور ومشاهد كلا الفريقين في الشام ومصر مشكوك فيها.

موسى بن جعفر [١] وشرط ان لا تعار [٢]

وفي ترجمة الوزير مجد الدين البهنسي المتوفى سنة (٦٢٨) انه جعل كتبه وقفاً بتربته بسفح قاسيون واجرى عليها اوقافاً جيدة [٣]

وانتشر في العصر الايوبي بناء المدارس الى جانب الترب انتشاراً عظيماً ففي سنة (٥٢٧) بنى صلاح الدين الايوبي تربة الامام الشافعي وانشأ المدرسة الصلاحية بجانبها ، وبنى مدرسة مجاورة للمشهد المنسوب للحسين بن علي [٤]

ولما توفي صلاح الدين الايوبي سنة (٥٨٩) دفن في قلعة دمشق حتى جاء ولده العزيز عثمان الى دمشق فبنى له تربة والى جانبها مدرسة هي من اعظم مدارس دمشق وقف لها وقفاً مليحاً ونقل اباه صلاح الدين اليها [٥]

ولما توفي الملك العادل اخو صلاح الدين سنة (٦١٥) دفن في قلعة دمشق أيضاً ، فبني له ابنه الملك المعظم تربة ومدرسة دعيت باسمه ونقل اباه اليها [٦] ، والمدرسة المذكورة هي مقر المجمع العلمي العربي بدمشق .

هذه صورة مجملة عن تاريخ الترب الاسلامية وهي تختلف كل الاختلاف عن ترب ومدافن الامم القديمة الخاصة التي لم يقصد منها الا تخليد الذكر والفخار لأصحابها بخلاف المدافن الاسلامية الخاصة التي قصد منها خدمة العلم والثقافة مضافاً الى ذلك تخليد اسماء المشاهير من عظماء المسلمين .

دمشق : محمد أحمد دهمان

---

(١) هو الشهير بموسى الكاظم بن جعفر الصادق ويعد موسى ثامن الأئمة الاثناعشرية توفي في بغداد سنة (١٨٣) قيل إنه توفي مسموماً .

(٢) الوافي بالوفيات في المكتبة الأحمدية بالاستانة رقم المخطوط (٢٩٢٠) عن السيد يوسف العش . ولعلي بن علي بن رزوبهار ترجمة في الجزء التاسع من عنوان التواريخ لابن الساعي . نشره مصطفى جواد في بغداد عام ١٣٥٣ هـ .

(٣) تنبيه الطالب ، ومختصراه للعلموي والبقاعي .

(٤) تاريخ ابن خلكان ج ٢ ص ٥٣٢ المطبعة الأميرية والنجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥٤ و ٥٥ والتعليقات عليها .

(٥) تنبيه الطالب ، ومختصراه للعلموي والبقاعي .

(٦) المصدر نفسه .

هل عرف العرب البلهارزية

١ً : توطئة

ليس كاتب هذه الكلمة طبيباً ، انما درس الطب في شبابهِ مدة سنتين ، ثم عدل عنه الى تحصيل الفلسفة وعلم اللاهوت في مونپليه *Montpellier* ، في فرنسة للترهب فأكبَّ عليهما سبع سنوات ، ثم ترهب .

فما تقرأ هنا ، لا يعتمد عليه الاّ من باب الاطلاع والفضول والوقوف على ما يكتب ، لا من باب العلم الذي لا يرتاب في حقيقته ، ولا من باب التأكيد الذي لا ريب فيه .

ان البلهارزية لم تخلق في هذا العصر ، ولا قبل عصور عدة ، انما وُجدت مع وجود العالم ، وهي « دودة مستطيلة : الى البياض ماهي ، طولها ثلاثة خطوط ، واغلب ما تكون في الاوردة الصغيرة ، في الغشاء المخاطي المبطن للمسالك البولية ، وتسبب البول الدموي في اهالي ديار النيل » (عن لترِهْ في معجمه الطبي)

وبلهارزية ، كلمة منسوبة الى الطبيب الالماني الذي اكتشفها في مصر واسمهُ *Bilharz* فالعرب كانوا في وادي النيل وعاشوا فيه ، وابناؤهم لا يزالون في تلك الديار ، وهم يصابون بالبول الدموي الى عهدنا هذا ، فلا بد من ان اجدادهم عرفوا هذا الداء والدودة التي تسببهُ ، فما كانوا يسمونها ؟

٢ً : البلهارزية هي قملة النسر .

قرأت في القانون لابن سينا ما هذا نصه الذي انقله بحروفه عن نسختي الخطية (ظهر ص ٧٢٣ وتقع في المجلد ٢ : ١٤٨ من طبعة رومة) :

« فصل في قملة النسر المسماة (دَدَه) بالفارسية ، و (صملوكي) باليونانية ، و (طغانوس) بالهندية .

. «وهذه هامة كالقملة، او كأصغر الديدان، قال جالينوس: هي صغيرة لا يُتوقّى منها، وتكاد لا تبصر لسعتها، وهي مما تفجر الدم بولاً ورعافاً، ومن المقعدة، ومن المعدة، بالقيء، ومن الصدر والرئة، ومن اصول الاسنان. وربما عظم الخطب فيها، فلم تقبل الدواء» انتهى

وقال الجاحظ في كتاب الحيوان ٥ : ١٢٠ : «وكذلك يقال ان البعوضة لو الحقت بمقدار جرم الجرّارة [1]، فانها اصغر العقارب. ثم زادت من تضاعيف ما معها من السمّ على حسب ذلك، لكانت شرًّا من الدويبة، التي تسمى بالفارسية دده [2] وهي أصغر من القملة [3] شيئًا. وتكون بمهرجان قُذَق [4]، فانها مع صغر جسمها، تفسّخ الانسان في امرع من الاشارة باليد، وهي تعض وتلسع، وهي من ذوات الافواه، وهي التي بزعمهم يقال انها قملة استحالت هذه الدابة الخبيثة» انتهى.

٣ : سبب تسميتها بقملة النسر

يظن بعضهم ان قملة النسر سميت بهذا الاسم لأنها تكون فيه، لا تخرج منهُ، فتهجم على الناس. هذا في رأي الأقدمين، وليس من العلماء المحدثين من يرى هذا الرأي، فهي لا توجد فيه، وان وُجدت، فكيف تصل الى الانسان وكيف تهجم عليه، ولا سيما في المواطن التي لا نَسرَ فيها، ولا أثر لهُ فيها؟ ثم كيف تصل الى مسالكه البولية؟

والذي عندنا انها سميت بذلك للاشارة الى انها تفتك بالانسان، فتك النسر بصيده، او من باب اضافة الحقير الصغير الى الجليل الكبير، تعظيماً له ولأمره ولفعله. فقد قال الأقدمون منا: أسد الله، وسيف الله، وقوس الله، ورُمح الله،

(١) الجرّار: ضرب من العقرب صغير خبيث يعرف بهذا الاسم في بغداد، واحده جَرّارَة. وفي الأصل المطبوع الجرادة وهو خطأ.

(٢) وفي الأصل المطبوع ذروة وهو خطأ بين.

(٣) وفي الأصل المطبوع: أكبر من القملة شيئاً، وهو وهم اخر.

(٤) وفي الأصل المطبوع: بمهرجان فوق، وهذه كبوة أخرى.

وكلب الله ، الى نظائرها من التعابير ، ونحن نعلم ان ليس لله أسد ولا سيف ولا قوس ولا رمح ولا كلب ، بل كل ذلك من باب التعظيم والاجلال ٠

٤ً : مترادفات قملة النسر

قال ياقوت الحموي في معجم الادباء في ترجمة علي بن منصور الحلبي (طبعة مرجليوث ٥ : ٤٢٧) [١] : « واتفق ان الطبيب المذكور لحقته بعد هذا بأيام شقفة ، وهي التي تسمى التراقي ، ويقال لها قملة النسر أيضاً ، فمات منها ، وكان نصرانياً » اه ٠

وذكر التراقي ابن الاثير في كامله ٠ قال (في المجلد ١٠ : ٣٧٤ من طبعة الافرنج) : « في هذه السنة (٥١٢) ٠ سادس عشر شهر ربيع الآخر ، توفي المستظهر بالله ، ابو العباس احمد بن المقتدي بامر الله ، وكان مرضه التراقي [٢]

وعندنا ان التراقي من اصل فارسيّ هو (تِراك) كسحاب وكتاب ٠ ومعناها الشقّ والفلع والفلق وسمي كذلك لأن هذه الدودة تحدث فلعاً دقيقاً في المكان الذي تقيم فيه ، وعربت بقاف في الآخر وزيادة الياء ، كأنهم أرادوا ان يقولوا : ذات الصدْع او الصادعة ٠

على أن لها تأويلاً في اللغة الضادية وهو : ان التراقي جمع ترقية مصدر رقي ٠

(١) نحن لا نستشهد بطبعة الدكتور احمد فريد رفاعي بك فانها لكثيرة الغلط والتصحيف وأوهام الطبع ، فان هذه الترجمة وقعت في المجلد ١٥ ص ٨٣ وما يليها ٠ فقد جاء مثلاً في الأبيات المذكورة في ص ٨٧ ما هذا نصه : « ان الزمان قد نفر » وفي مرجليوث : قد نصر — وفيها : فقد عدا على القصر ٠ وفي مرجليوث : فقد غدا — وفيها : من غره — وفي مرجليوث : من غرة ٠ ونحن لا ننكر ان لرواية الدكتور أوجهاً أصح من أوجه مرجليوث لكن يحسن به أن يذكر الروايتين ليتبين الفرق بينهما وينتقي القارئ ما يشاء أو ما يستصوبه ٠

(٢) لاحظ ابن الاثير ان المقتفي لأمر الله بن المستظهر بالله مات بالعلة التي توفي بها والده ، وهذه عبارته : « في هذه السنة (٥٥٥) ثاني ربيع الأول توفي امير المؤمنين المقتفي لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله أبي العباس احمد بن المقتدي بأمر الله رضي الله عنه بعلة التراقي ... ووافق أباه المستظهر بالله في علة التراقي ، وماتا جميعاً في ربيع الأول » اه ٠

ولا شك ان الابن تلقى مرضهُ من والده ، وإن لم يكن هذا المرض معدياً في حدّ نفسه ٠ هذا الذي يتبين من الظواهر ، ولعل هناك سبباً آخر يدلنا عليه اطباؤنا المهرة الحذاق ٠

وسبب تسميتها بذلك انها اذا دخلت الجسم ارتقت فيه شيئاً فشيئاً حتى تبلغ مسلك البول ، فتجد فيه بيئة صالحة تعيش فيه وتنمو نمواً يزيدها توالداً وتكاثراً ، فهي ذات تراقٍ .

وأما اسمها (الشقفة) فانهُ مشتق من الإرَمية من فعل (شقفْ) ومعناها الرضة والشدخة والصدعة اي بمعنى اختها (التراقي) ، ان سلمنا انها من الفارسية ، وهو الرأي الاشبه . ويجب ان تضبط (الشقفة) وزان (الغرفة) بخلاف ما ضبطها الدكتور احمد فريد رفاعي بك اذ جاء البيت الآتي مضبوطاً هكذا :

بِشقفةٍ بين مِنكبيهِ رشاؤها في قليب قلبهِ

وهنا غلط آخر وهو ضبط المنكب ، كمنبر والصواب كمنزِل .

وقد شرحنا سبب تسمية هذهِ الدودة بقملة النسر فلا نعود الى ذكره ثانية .

وان قال قائل : ليست قملة النسر بالبلهارزية فنسأله : اذن ماهي ؟

٥ً : دودة اخرى : خرز الطين

وذكر القانون بعد قملة النسر هامة أخرى سماها « خرز الطين » ووصفها هكذا ، فقال :

« فصل في الطبوع وخرز الطين ، وهي دابة كثيرة الأرجل ، حادة السمّ ، هي في أحكام قملة النسر » اه .

قلنا : اذن هي مؤذية اذى قملة النسر ، أفلا يوافق هذا الوصف ما قيل في الهامة التي يسميها العلماء : *Trichodectes* ، فانها كثيرة الأهداب او الارجل وتعيش في المستنقعات ، غريبة الشكل ، تكاد تشبه الخرز في ظاهرها ، وتتشبث بالكلاب فيقال لها *Trichodectes canis* ، وبالمعزى فيقال لها : *T.climax* ، وبالبقر فتدعى *T.scalaris* وبالخرفان فتسمى *T.sphoeroce phalus*

فأنا اطرح هاتين الكلمتين على مائدة النقد والتحقيق والتدقيق في النظر ، لتنجلي الحقيقة الفاصلة في هذا الموضوع الغريب :

ومن العجب ان معاجم اللغة لم تذكر اسماً من الأسماء الثلاثة ، ولا خرز الطين . وقد جاءت هذه الأخيرة مصحفة تصحيفاتٍ غريبة في نسخ القانون ، من مطبوعة ومخطوطة ، وانا اذكر هنا ما وقع طائر بصري عليها وهي : خزر الطين ، بتقديم الزاي على الراء . — وخزز الطين ، بزايين . وحرز الطين ، بحاء مهملة وراء وزاي — وجرز الطين ، بجيم وراء وزاي . وعسى ان يقوم من دكاترتنا الممعنين في الطب واللغة ، من يزيل الابهام عن هذهِ الالفاظ فيكسب شكر جميع الناطقين بالضاد .

بغداد : الأب انستاس ماري الكرملي



مفردات القرآن

ولانقول غريب القرآن ، لأن مدارسة القرآن على ألسن الملايين من الناس منذ بدء الوحي الى هذا العهد ، أخذت على الغرابة مجامع السبل ، فلم تجد اليه سبيلا ، فلا تجد لفظة من ألفاظه غير مألوفة الاستعمال ، ومعروفة المعنى ، واضحة المغزى . وهل الغرابة في الألفاظ الا كونها غير اليفة ، فيحتاج في معرفتها الى التنقير عنها في مطاوي المعاجم المبسوطة . وقديمًا عدوا الغرابة من عيوب الفصاحة ، فأنى لنا أن نلصقها ببعض ألفاظ القرآن ، وقد اجمع الأولون والآخرون على انه أفصح كلام عرفته اللغة العربية ، منذ كانت في المهد الى هذا العهد .

هذا ولسنا بحاجة الى بيان ما للقرآن من اليد المشكورة على لغة العرب ، لأن هذا من أوائل البديهيات ، فلقد كان القرآن ولا يزال ، المعين الفياض لعلماء اللسان . يردونه ظماء ، ويصدرون عنه رواء . ومن ثم توافروا على ضبط مفرداته ، وتحرير لغاته ، واستقصاء حقائقه ومجازاته ، وتصاريحه و كناياته ، ودقائقه ونكاته ، وذلك لأن الناحية اللسانية هي أول ما يستقبل طالب علوم القرآن من القرآن . ولهذا رأينا علماء الدين وطلاب اليقين يسيرون في هذه الناحية الى جنب علماء اللغة كتفًا لكتف ، فأسفر هذا التآزر عن احسن النتائج وأعظم الفوائد . وبديهي ان مفردات القرآن كتراكيبه هي لب لباب كلام العرب ، وصفوة الصفوة منه ، وانها معتصم المتأدبين ، ومرجع العلماء المحققين ، بل مثابة أمراء القول من المتقدمين والمتأخرين . ولله شيخ المعرة حيث يقول في عرض كلام له في رسالة الغفران « اجمع ملحد ومهتدي ، وناكب عن المحجة ومقتدي ، ان هذا الكتاب الذي جاء به محمد ص كتاب بهر بالاعجاز . ولقي عدوه بالارجاز ، ما حذي على مثال ، ولا أشبه غريب الامثال ... وان الآية منه او بعض الآية لتعترض في أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون ،

فتكون كالشهاب المتلألئ في جنح غسق ، والزهرة البادية في جدوب ذات نسق » .

ولا مرية في أن القرآن كان يخاطب العرب على وفق مناهجهم في مخاطباتهم وخطاباتهم ، وتفاهمهم في أفرادهم وجماعاتهم . وكان الصحابة يعرفون أكثر ما يرمي اليه من المعاني ، وما يومئ اليه من المغازي ، واذا غم عليهم شيء من ذلك فزعوا الى الرسول الكريم ، فينير لهم السبيل .

واكثر ما يكون تسآلهم عن الكلمات التي تصرف القرآن في أوضاعها ، وحولها عن مجاريها الاعتيادية الى معاني جديدة لم تكن من مألوف القوم قبلاً . مثل : القرآن . والايمان . والكفر . والصلاة . والزكاة . بمعانيها الشرعية . وقد غبر الناس على هذا حياته ص . ثم مدة حياة أصحابه من بعده ، الى ان فتح على العرب ممالك الأعاجم ، واختلطوا بحمرائها ، وصفرائها ، وبيضائها ، وسودائها . ومن هناك أخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً من بين فارسي ، ورومي . ونبطي ، وحبشي ، وغيرهم من مختلف الألوان التي دانت لسلطان الفاتحين ، فاختلط القوم بالقوم بالمساكنة والمجاورة ، والمخاتنة والمصاهرة ، والمصاحبة والمتاجرة . وبذلك تداخلت اللغات ، ونشأت ناشئة من صميم العرب في أحضان هذا التبلبل ، فجاءت مختلفة السلائق ، مضطربة الألسنة ، كما نبتت نابتة من أبناء الأعاجم ثقفت من العربية ما يسد حاجتها في المخاطبات والمحاورات . ومن هنا ذر قرن لغةٍ أمشاج ؛ لا هي بالعربية الصافية . ولا العجمية الصرفة ، ولم تفتأ هذه اللغة ان ملكت الهجين من السنة الدهماء ، واحتلت مكانة ضيقت فيها على المعربة أنفاسها . وما كاد ينطوي بساط المئة الأولى للهجرة حتى بدت وجوه الاختلال سافرة ، وظهر الاضطراب في عمود اللغة كل الظهور .

ومن هنا شعرت جمهرة القوم بمسيس الحاجة الى الاستفسار عن كثير من الفاظ القرآن الكريم ، واستجلاء معانيها التي كان أسلافهم يدركون مراميها بحكم سلائقهم ، لأنها من نوع ما كانوا به يتفاهمون ، وعلى نمط ما به ينثرون وينظمون . ولما رأى عقلاء الأمة وأهل العلم استرسال أمر الاختلال ، وتفاقم الاضطراب

والاختيال — استفزتهم الحمية وأهابت بهم الغيرة ، فانصرف فريق منهم لرأب هذا الصدع ، وسد هذا الثغر

وأول من بلغنا انه جمع شيئاً في تفسير بعض مفردات القرآن ابو عبيدة معمر ابن المثنى المتوفى سنة ٢٠٩ فقد ذكروا أنه الف في هذا كتاباً اسماه (المجاز في غريب القرآن) وآخر اسماه (معاني القرآن) . والمراد بمعاني القرآن تفسير مفرداته . وهو اصطلاح معروف عند المتقدمين . وحيث رأيت في كتب علوم القرآن : قال أهل المعاني فالمراد بهم مصنفو الكتب في مفردات القرآن . وتجد في فهرس كتب الأصمعي كتاباً اسمه : غريب القرآن . والأصمعي من معاصري أبي عبيدة وتأخر عنه قليلا .

ثم أقبل أهل العلم على التأليف في هذا الموضوع حتى لا يكاد يقع نظرك على فهرس من فهارس ائمة اللغة الا وتجد صدره متحلياً باسم كتاب في هذا المعنى . منهم الزجاج والفراء ، ومحمد بن القاسم الانباري ، وابو عمر الزاهد ، ومحمد بن عبد الواحد . وابن دريد وغيرهم خلق كثير . وكان من اجمعها كتاب ابي عبيد القاسم ابن سلام (المتوفى سنة ٢٢٣) وكانت الكتب المصنفة في هذا الفرع من العلم عارية من الترتيب غفلاً من التبويب ، وكانت بالمجاميع اللغوية أشبه منها بالكتب ذات الفصول والابواب . واستمر الامر على ذلك الى ان جاء ابو بكر محمد بن عزيز السجستاني (المتوفى سنة ٣٣٠) فألف كتابه المشهور (بنزهة القلوب) ورتبه على حروف المعجم ترتيباً لم يسبق اليه ، فبدأ بالهمزة المفتوحة ، وثنى بالمضمومة ، وثلث بالمكسورة . وهكذا فعل بسائر حروف المعجم على الترتيب المشهور . وهذا الكتاب على صغر حجمه من أتقن ما ألف من نوعه . وقد قيل انه أقام في تأليفه خمس عشرة سنة يحرره هو وشيخه أبو بكر بن الأنباري ، وكان يتعهده بالتصحيح والتجويد بين حين وآخر .

ولم تزل التآليف في هذا الباب آخذة في الاتساع من حيث الكمية ، والاجادة

من حيث الكيفية ، الى ان جاء ابو عبيد احمد بن محمد الهروي (المتوفى سنة ٤٠١) وصنف كتاباً كبيراً جمع فيه بين غريبي القرآن والحديث ، ورتبه على حروف المعجم فاستخرج الكلمات اللغوية التي تحتاج الى التفسير والتوضيح . واثبتها في حروفها وذكر معانيها . فاذا أراد الانسان كلمة وجدها في حرفها . فجمع كتابه هذا بين دقة التحقيق ، وجودة الترتيب والتبويب . ولذلك اعتمد عليه الناس من بعده واكثروا عليه من الاستدراكات والتعليقات والاضافات ، الى أن جاء الحافظ ابو موسى محمد بن ابي بكر المديني الاصفهاني فصنف كتاباً جمع فيه مافات الهروي من الغريبين ، وسلك في وضعه وترتيبه مسلك الهروي ، فجاء مماثلاً له حجماً وفائدة ، وغبر الناس يعتمدون في هذا الأمر على هذين الكتابين الجليلين وما سبقهما من الكتب المهمة الى ان جاء أبو القاسم الحسين المعروف بالراغب الاصفهاني (المتوفى سنة ٤٠٢) فألف كتابه مفردات الفاظ القرآن ، مرتباً على حروف الهجاء ، مقدماً ما أول اصوله الهمزة ثم الباء الى آخر حروف المعجم ، مشيراً الى المناسبات التي بين الالفاظ المستعارة والمشتقة . فجاء كتابه هذا من أحسن ما الف في بابه من حيث غزارة المادة ، وكثرة التحقيق ، وحسن الاختيار ، وبعد النظر ، فهو — في نظرنا — افيد معجم يرجع اليه الطالب في تحقيق معاني الألفاظ القرآنية ، وعليه اعتمد البيضاوي في تحرير تفسيره من ناحية معاني الألفاظ وأصول اشتقاقها . ولم نعرف من بعده كتاباً يفضله في موضوعه هذا ، ومن الواضح أن المؤلفين في هذا الفرع يستقون حاجتهم في المعين الذي تستقي منه اللغة العربية على العموم ، زيادة على استعانتهم بالاحاديث النبوية وآثار الصحابة ، كالمنقول عن ابن عباس وأصحابه الآخذين عنه ، فانه ورد عنهم في هذا الباب الشيء الكثير الجدير بالاعتماد تجد ذلك منثوراً في كتب التفسير ودواوين اللغة . وقد أحصى منها جلال الدين السيوطي في (الاتقان) ما يقرب من ثمانمائة كلمة مع تفسيرها على طريق الايجاز .

بغداد : طه الراوي

خريطة العالم العربي

من سنة ١١٥٤ ميلادية

حصر الغرب اللغات العلمية المدنية باللغتين اللاتينية واليونانية . وأرى انه كان للغة العربية في القرون الوسطى أثر في المدنية الغربية ، فهي فضلاً عن أنها أم المدنية الاسلامية ، تستحق أن تعد ثالثة اللغات المدنية الغربية .

وبرهاناً على هذه الحقيقة التاريخية (التي ظلمها الغرب في ابنتها الشرعية) أقدم لكم شاهداً عدلاً وهو : ان أول خريطةٍ عاليةٍ بالمعنى العصري ، كانت تحتوي على تفاصيل جغرافية اوربا وافريقية وآسيا ، نشرت في أوربا سنة ١١٥٤ ميلادية ، وكان نشرها باللغة العربية .

وقعت قبل هذه الخريطة بالف سنة محاولة وضع خريطة عمومية باللغة اليونانية للأراضي المعروفة في تلك العصور وقد رسمها بطلميوس بمصر . الا أن خريطة هذا العالم الكبير لم تكن وافية . لأنه ذكر في خريطته نحو ثمانية آلاف من أسامي الأمكنة . والى الآن لم يتمكن أهل العلم الا من تعيين أقل قليل مما ذكر في خريطته . أما هذه الخريطة العربية فكل ما ذكر فيها من الأسماء والأمكنة ترد اليوم في خرائطنا العصرية ومعلومة لنا بأعيانها من غير التباس ، فحق لنا أن نعتبر هذه الخريطة خريطة عالمية بالمعنى الذي نعرفه اليوم من هذا اللفظ .

رسمت هذه الخريطة بمدينة بالرمه *Palermo* في جزيرة صقلية . رسمها ابو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس الحمودي الحسني المعروف بالشريف الادريسي . يقال أنه ولد في أسيوط سنة الف ومئة ميلادية . وتوفي سنة ١١٦٣ ميلادية وكان يشتغل بالعلوم في قرطبة ، وقد ساح الأقطار وألقى عصا التسيار في جزيرة صقلية عند ملكها روجار الثاني ملك جزيرة صقلية وايطاليا الجنوبية وقسم من شبه جزيرة البلقان من سنة ١١٣٩ — الى سنة ١١٥٤ . وعاصمته مدينة بالرمة

وكان هذا الملك يُعنى بالجغرافيا ، كان يجمع المعلومات الجغرافية من أقطار العالم كافة ، ثم عزم على هذا العالم العربي الادريسي أن ينشر هذه المعلومات ويرسم عليها خريطة جغرافية لأوربا وافريقية وآسيا . فقام الادريسي بهذا الأمر المهم حق القيام ، ونشر كل ما جمعه الملك من المعلومات ، وزاد عليها وكملها بما حصله هو نفسه باجتهاده طول عمره .

فوضع أول مصوّر عالمي باللغة العربية وقد حفره ونقشه على لوح فضي بشكل خوان ، يقوم على قوائم ، طوله متر ونصف وعرضه ثلاثة أمتار .

صرف الادريسي في سبيل تحقيق المعلومات التي كان جمعها الملك روجار ، وفي ترتيبها ، وفي جمع المعلومات الجديدة ، وكتابتها وحفرها زيادة على خمس عشرة سنة كاملة .

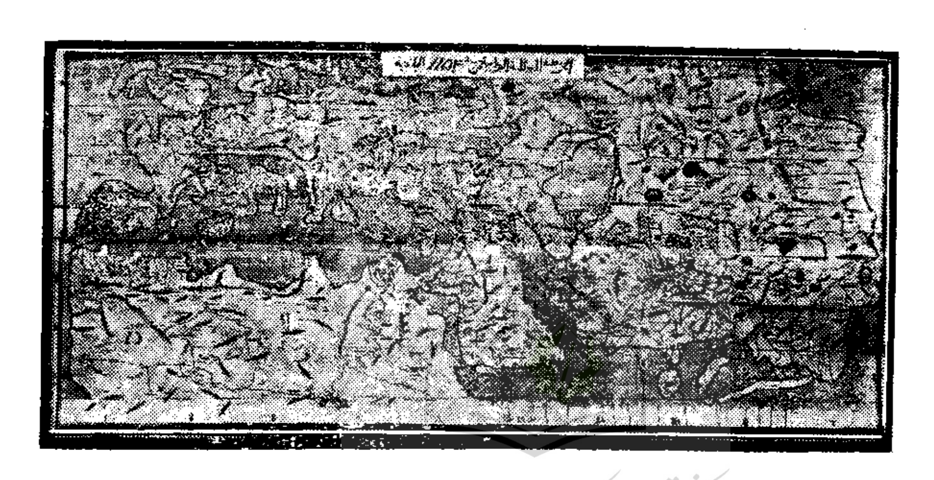
وفي السنة (١١٥٣ — ١١٥٤) وهي السنة الأخيرة من هذه الأعمال الكبيرة أصاب الملك مرض ، والغالب ان الادريسي عجل في اتمام عمله وخريطته حتى يراها الملك العظيم قبل موته ، وقد وفق الى اتمام عمله الكبير في ربيع سنة ١١٥٤ ميلادية حتى تمكن الملك الكريم من رؤية نتيجة مساعيه الجليلة ، فتوفاه الله بعد قليل من الزمن .

وقد كان لهذه الخريطة في عهدها أثر عظيم فانتبه لذلك الشرق والغرب . يشهد بذلك كثرة النسخ المحفوظة في الخزائن الغربية ، ومن الأسف أن تلك النسخ كلها متجزئة . فما كان الناسخ يستنسخ الا ما كان له علاقة بوطنه . ولم يعهد من استنسخ الخريطة باجمعها .

أما الخوان الفضي الذي خرطت عليه هذه الخريطة البديعة فقد صار فريسة حروب ، فضاعت الخريطة بيد طامع طمع في فضتها فأذابها .

وجاء العالم الألماني قونراد ميللر *Konrad miller* فبعث هذه الخريطة البديعة بجميع أجزائها المشتتة من قبورها المتفرقة ، فاشتغل هذا العالم سنين عديدة جامعاً كل الاجزاء وكساها شكلاً يشبه هيئتها الأصلية وطبعها سنة ١٩٣٧ ، وكتب الأسامي العربية كلها بالحروف اللاتينية . وصارت كل الحروف منكوسة رؤوسها

الى اسفل ، على نظام الخرائط العربية القديمة ، لأن الجنوب فيها فوق الصحيفة . ثم طبعت الخريطة سنة ١٩٣١ طبعة ثانية . وقد أرسلت اليكم بنسخة منها فوتوغرافية . ومن يرغب في اقتنائها فليراجع ناشريها في ليپسيك .



ولننظر نظرة اجمالية اول خريطة للعالم المتمدن القديم ، ولا يتعجبنّ الناظر اذا رأى قلة الاتقان في تخطيط حدود البحار والأراضي لأن أسباب الاتقان لم تكن متوفرة عندهم في تلك الأزمان ، حتى لم تكن عندهم الابرة = البوصله **Bussola** ولم يكن عندهم مابه يمسحون المسافات البعيدة . وما كانوا يرسمون الا على صور ذهنية كانت تحفظ في حافظاتهم بالمشاهدة الذاتية او من حكايات أهل السياحة .

ويظهر لنا من خريطة الشريف الادريسي انه كان يعرف الغرب والشرق معرفة جيدة ، وان لم يكن يجيد الرسم . ومركز المعمورة في زمنه على حسب عقيدته كان الشام بمدنها : دمشق ، وحمص ، وبيروت وغيرها ، وفي شرق الشام : العراق وايران والتركستان ، وفي جنوب الشام : جزيرة العرب . ولا يستغرب اذا كان الادريسي لا يعرف آسيا الشرقية والشمالية معرفة جيدة فالقليل الذي كان يعرفه منها له قيمة كبيرة عندنا اليوم . والادريسي وان لم يكن يجيد معرفة اوربا

الشمالية الا انه كان يعرف أوربا الغربية وافريقية معرفة تامة . وكان يعرف ان النيل ينبع من الحياض الكبيرة في أواسط افريقية — وكان يعرف اكثر مما كان يعرفه الغرب قبل اليوم بمئة سنة لأن الغرب لم يكتشف منابع النيل الا في العصر الماضي ، ومن هذه الينابيع يجري النهر الآخر العظيم الى الغرب ، وكان يعرفه العالم العربي الادريسي قبل أوربا بسبعمائة سنة .

وظهرت اليوم مسألة مهمة بالنسبة للعلم الحديث وهي اثبات ما كان يعرفه الادريسي من المعلومات الجغرافية في خرائطنا العصرية للعالم المتمدن القديم . وذلك بأن ترسم خريطة تاريخية للعالم القديم على حسب ما كان يعرفه الادريسي من المعلومات اي بتقدير المسافات وتعيين حدود الأراضي والسواحل والبحار والجبال والأنهار على غاية الاتقان . ويتأتى حينئذ لكل راغب أن يرى رأي العين اكمل خريطة تاريخية للعالم القديم على النحو الذي كان يعرفها العالم العربي في عصره .

ولبيان ان حل مثل هذه المسألة ممكن سهل ، آتي بشاهد من وطننا فنلاند في أقاصي الشمال البعيدة ، وان ضنت خريطة الادريسي الكريم بمعرفة شيء عن بلادنا . وذلك ان الأخوين المعروفين من بيت العلم الشهير : احدهما تال‌غرين — توليو والثاني آ . م . تال غرين قد تمكنا من تعيين مكان واهمية كل ما أتى به الادريسي في خريطته من المعلومات القليلة ، ورسماها في خريطة فنلاند العصرية بغاية الاتقان . ثم نشرت رسالة صغيرة ذات أربع وخمسين ومئة صفحة في البحث العلمي المهم باسم *Studia Orientalia III. Idrisi: La Finlande et les autres pays Baltiques orientaux* ولها لواحق عديدة ذات مكانة جديدة .

أما الأقطار التي كان يعرفها الادريسي معرفة جيدة فان أهل العلم الحديث اتوا فيها بخدمات علمية جليلة ونشروها وما زالوا ينشرونها . وهي ، على ما نظن ، معلومة لديكم .

فنلندة كانغاس — آلا **يوحنا آهتينن كارسيكو**

مخطوطات ومطبوعات

انباء الغمر بأبناء العمر

من نفائس مخطوطات المدرسة العثمانية بحلب (انباء الغمر بأبناء العمر) للحافظ الامام الشيخ احمد بن علي بن حجر العسقلاني . وهو في مجلدين ضخمين الأول في ٤٤٤ صفحة كل صفحة ٢٩ سطراً يبتدئ من سنة ٧٧٣ وهي تاريخ ولادة الحافظ ابن حجر وينتهي في سنة ٨١١

والمجلد الثاني في ٤٠٤ اربع واربعمائة صفحة كل صفحة ٢٩ سطراً يبتدئ فيه من سنة ٨١٢ الى سنة ٨٥٢ الى السنة التي توفى فيها المؤلف . والنسخة مقروءة مع شيء من الصعوبة وعلى حواشيها هوامش كثيرة منقولة من تاريخ البدر العيني الا ان كاتب الحواشي هو غير كاتب الأصل ، وكتب على ظاهر المجلد الثاني مانصه : هذه النسخة بخط سبط المؤلف

والمؤلف يذكر حوادث كل سنة في مصر وغيرها ويعقب ذلك بذكر من توفي فيها من الاعيان ، الا ان معظم الحوادث التي فيه هي مما كان في مصر . وآخر ترجمة فيه ترجمة ابراهيم بن رضوان الشيخ برهان الدين الحلبي . وبعدها ما نصه : هذا آخر ما وجد من تاريخ الشيخ الإمام الحافظ القاضي شهاب الدين ابي الفضل احمد ابن حجر الشافعي .

قال في كشف الظنون : اول هذا الكتاب الحمد لله الباقي وكل شيء يفنى الخ ذكر فيه انه جمع الحوادث التي ادركها منذ ولد سنة ٧٧٣ وأورد في كل سنة أحوال الدول ووفيات الأعيان مستوفياً لرواة الحديث . وغالب ما نقله من تاريخ ناصر الدين ابن الفرات وصارم الدين بن دقماق والمقريزي والتقي الفاسي والصلاح خليل الأقفهسي والبدر العيني واورد ما شاهده ايضاً . قال وهذا الكتاب يحسن من حيث

الحوادث ان يكون ذيلاً على تاريخ الحافظ ابن كثير [1] فانه انتهى في ذيل تاريخه الى هذه السنة ومن حيث الوفيات ان يكون ذيلاً على وفيات تقي الدين بن رافع وانتهى فيه الى سنة ٨٥٠

واذكر اني رأيت مسودة المؤلف في المكتبة الظاهرية بدمشق وفيها تشطيب وحواش وتكاد لا تقرأ لرداءة خط المؤلف رحمه الله تعالى

ويوجد من هذا التاريخ نسختان في مكتبة كوبريلي زاده محمد باشا في الآستانة الأولى في مجلدين رقمها ١٠٠٥ – ١٠٠٦ والثانية في مجلدين أيضاً رقمها ١٠٠٧ – ١٠٠٨

ولا ريب ان الكتاب جدير بالطبع لأن به تتصل سلسلة الحوادث التي وقعت في هذه السنين ونقف على من توفي فيها بصورة متسلسلة ·

ولا ريب ان بالبحث يوجد منه نسخ غير التي ذكرناها وانا نرجو ممن يقف على نسخ منه ان يكتب لمجلة المجمع لعل ذلك يكون سبباً لنشر هذا السفر النفيس فتعم الاستفادة منه عشاق الأدب والتاريخ والعلم

حلب: محمد راغب الطباخ

« الاجابة ، لايراد ما استدركته عائشة على الصحابة »

(تأليف الامام بدر الدين الزركشي)

عُني بتحقيقه ، ووضع مقدمته ، وتعاليقه وفهارسه سعيد الأفغاني ·

طبع بالمطبعة الهاشمية بدمشق سنة ١٣٥٨ ه سنة ١٩٣٩ م ·

أحسن الاستاذ الافغاني كل الإحسان باستخراجه هذه الرسالة النفيسة من كنوز المكتبة الظاهرية ، واحيائها بالطبع والنشر ، فان ام المؤمنين عائشة (رض)

---

(١) هذا التاريخ طبع في مصر ومنه نسخة خطية في مكتبة المدرسة الأحمدية بحلب في عشر مجلدات وقد نقل منها بواسطتنا لناشره خمس مجلدات ويظهر أنه وجد بعد ذلك نسخة أخرى في مصر فاستغنى عن استنساخ الباقي

هي احدى المعجزات الخالدة في بيان مشكلات التفسير والحديث والفتاوى والأحكام .
ومسندها في (ج ٦) من مسند احمد بن محمد بن حنبل يقع في (٢٥٣) صفحة .
وعلى علمها وفهمها المعول فيما كان يقع فيه التنازع بين كبار الصحابة (رض) في النوازل والأحكام ، لا سيما في معرفة ما كان يفعله الرسول (ص) في بيته .
و « الاجابة » توقف المطالع على مر عظمة هذه السيدة ، وعلو مكانتها ، وهي في الأصل مائة صفحة الا قليلا ؛ ولكن الاستاذ الناشر بما قدم لها ، وعلق عليها ، ووضع من فهارس في آخرها ، أبلغها الى (٢٣٠) صفحة بالقطع المتوسط .

وقد رتب الإمام الزركشي كتابه على مقدمة وثلاثة أبواب (الباب الأول) في ترجمة عائشة وفيه فصلان (١) في ذكر شيء من حالها و (٢) في خصائصها ومزاياها ، وقد عد منها (٤٢) واحدة (الباب الثاني) في استدراكاتها على أعلام الصحابة ، وفيه استدراكات على (٢٤) صحابياً وصحابية في مسائل كثيرة من التفسير والحديث والعبادات والمعاملات (الباب الثالث) في الاستدراكات العامة ، وفيه (١١) استدراكا ، وفي ذيله أربعة أخر .

وأما الاستاذ الأفغاني فقد صدر الكتاب بمقدمة في نحو ثلاثين صفحة ، تضمنت وصف « الإجابة » وسعة علم عائشة ، وترجمة المؤلف ، وعدد تآليفه ، وشيئاً عنها ، ووصف النسخة الظاهرية الفريدة التي ظفر بها ، وما لقي في سبيل تصحيحها واخراجها ، وعرض نماذج منها مأخوذة بالتصوير الشمسي . وقد علق على هذا الكتاب تعليقات دلت على بذل جهد ، واستنفاد طاقة ووسع ، فقد راجع لأجله عشرات المظان من دواوين السنة وشروحها ، ومعاجم الحديث الخطية كمعجم الطبراني الكبير ، وكتب الرجال والطبقات ، فجاءت تعليقاته وافية بالقصد ، ثم ختم الكتاب بفهارس خمسة مفصلة (١) للأعلام (٢) للجماعات (٣) للأماكن (٤) للكتب (٥) للموضوعات وفي الصفحة الأخيرة تصحيح للأغلاط ، ونحن نشير الى الاغلاط القليلة التي لم نرها مصححة ، وقل أن يخلو من مثلها كتاب :

ص ٥ س ٧ : وعروة وابن الزبير ، والصواب : عروة بن الزبير وفي ص ٥ في التعليق : انظر مسند احمد ج ٦ ص ٩ : ليس في هذه الصفحة ما أشار اليه ، ولكن في غيرها ما يدل عليه ٠

		الخطأ	الصواب
ص ٢٠	س ٢٠	فما زلت ارجع إلا الأمهات	إلى الأمهات
٤٥	٦	وروي عيها	عنها
٦٩	١١	ابن ماجة	ابن ماجه ، بالهاء الساكنة وصلا ووقفاً ، فتراجع في فهرس الأعلام وتصحح ، والغلط من قلم الناسخ ، لا الناشر ٠
٧٢	١٣	ادخل البيت الذي دفن معهما عمر	: دفن فيه معهما عمر ٠
٧٣	١٣	أعلى الدلاء من اسفله	: من اسفلها
٧٤	١٨	فوق بعضها	: بعضها فوق بعض
١٠٩	١٠	عن وتر رسول	: رسول الله ٠
١٢٠	١٨	من مسند أبي داوود	: داود : بواو واحدة ، وتراجع في فهرس الأعلام للتصحيح

ولما وصف الأستاذ الأفغاني مؤلفات الزركشي قال عن (لقطة العجلان) منها : وقد طبع في دمشق مؤخراً » (أي سنة ١٣٥٣ هـ سنة ١٩٣٤ م) والصواب أن هذا الكتاب — الباحث في أصول الفقه والحكمة والمنطق والتوحيد — قد طبع أولاً في مصر بمطبعة والدة عباس (سنة ١٣٢٧ هـ سنة ١٩٠٨ م بشرح الإمام جمال الدين القاسمي ، ومن غرائب اتفاق القدر أنا قرأناه بشرح أستاذنا القاسمي عليه عام وفاته (سنة ١٣٣٢) فكان عمر المؤلف والشارح واحداً ، وهو تسعة واربعون عاماً رحمهما الله تعالى ٠ وقد طبع شرح القاضي زكريا على لقطة العجلان ايضاً ، وطبع

شرح الزركشي على جمع الجوامع في (اصول الفقه) للسبكي بمصر سنة ١٣٣٢ هـ .

وبعد فقد وجه الاستاذ الأفغاني في مقدمته أنظار نساء العصر الى علم عائشة (رض)فقال في (ص ٦) : ولتعلم بعد هذا سيداتنا أن امرأة منهن في صدر الإسلام تتلمذ عليها مشيخة المهاجرين والأنصار من كل حبر وعالم وفقيه وقارئ وراوية ، وعنها وحدها نقل ربع الشريعة كما قال الحاكم في المستدرك »

واقول : ان الفتيات في عصرنا يحملن الشهادات الابتدائية والثانوية ، ومنهن من نالت الشهادة العالية في العلوم أو الأدب او الحقوق أو الطب ، أو شهادة التخصص (الدكتوراه) بالفلسفة والتربية ، ولكننا لا نرى إزاء هذه الشهادات المدنية فتاة تحمل شهادة ابتدائية في الدين ، دع المتوسطة والعالية ! فان قيل : وأين تتخصص الفتاة الحاملة لشهادة (البكالوريا) أوالحقوق مثلاً في العلوم الدينية؟ فالجواب من وجهين :

(١) يجب أن نطالب الحكومة بافتتاح فرع التخصص الديني الذي كانت اعتزمت انشاءه وجعله فرعاً للجامعة السورية ، ونفقاته قليلة ، وفوائده جزيلة .

(٢) ان الأزهر الشريف قد افتتح كليات التخصص الديني وجعلها لأبناء المسلمين عامة ، لا للمصريين خاصة ، فمن السهل على بناتنا من حاملات البكالوريا ، ولا سيما المجازات بالحقوق أن يصحبن بعض ذوي المحارم ، وينهلن من معين الشريعة الصافي ، ويَعدن رافعات ألوية الدين والعلم والإصلاح .

محمد بهجة البيطار

نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر

مطبعة الفنون المصورة [٨٦ ص القسم العربي مع الذيل والفهارس و٥٧ ص الترجمة الاسبانية بوسكا • العرائش (المغرب) ١٩٤٠

ما تزال نكبة الأندلس ونزوح العرب عنها النزوح المعروف أمره درساً ماثلاً في نفس كل عربي يثير فيها العبرة والدمعة معاً ·

ولعل اغرب مافي هذا الدرس تلك الفوارق العظمى بين معاملة العرب للاسبان حين دخلوا بلادهم فاتحين ومعاملة الاسبان للعرب حين جلوا عنها نازحين ·

وهذا كتاب لمؤلف مجهول حضر الوقائع الأخيرة بين العرب والإسبان وشاهد عن كثب ما صب على رؤوس المسلمين من البلاء من تقتيل وتعذيب ونهب اموال وسبي نساء وذراري ، واجلاء عن الاوطان واستباحة لحرمات المعابد والأديان ، ثم تفنن في استئصال البقية الباقية من شيوخ لا حول لهم على مشاق السفر وأطفال وأرامل أقعدهم الضعف [١] ، فكل يوم احالات بالمئات على محاكم التفتيش وكل يوم احراق وصلب وتعذيب في الساحات العامة حتى سئم الإسبان أنفسهم هذه المجازر البشرية التي راجت سوقها والتي أحرزت بها حكومة الإسبان حينئذ قصب السبق في الوحشية والقسوة والظلم ·

واليك كلمة المؤلف نفسه عن موضوع كتابه وخطته فيه قال : « اما بعد فهذا كتاب اذكر فيه نبذة من بعض تواريخ ما وقع في مدة الأمير أبي الحسن علي بن نصر ··· ابن الملوك النصريين ، ومدة ملك ابنه محمد وأخيه محمد أيضاً رحمهما الله ، وكيف استولى العدو على جميع بلاد الأندلس في تلك المدة · وعولت في ذلك على الاختصار وتركت التطويل والاكثار » [٢]

---

(١) ص ٤٤ ، ٤٥ (٢) ص (١)

تجد في هذا الكتاب تفصيل حصار مدينة الحمة وموقعة لَوْشة وانتصار المسلمين وفرار ابني الأمير وتألب أهل وادي آش وغرناطة معهما وموقعة بلِش وموقعة اللسانة واستيلاء النصارى على حصن قرطمة ودكوين والرندة وموقعة المكلين ، واستيلاء النصارى على حصن قنبيل ولوشه وإلبيرة — وحصار مدينة مالقة والبسطة وحصن الشلوبانية ثم حصار غرناطة وتسليمها .

وفي خلال ذلك تشاهد من ضروب البطولة التي أبداها العرب على قلتهم ما ميزهم من جميع الأمم ولكن أمرهم كان الى إدبار . وأشد ما يفجعك هو خروج الخارجين على الأمراء وانقسام هؤلاء العرب القليلين بعضهم على بعض ، واستعانتهم بعدوهم على قومهم واهل ملتهم حتى اذا انتهيت الى آخر الكتاب لم تملك دمعتك حين ترى آخر ملوك غرناطة يستعين بملك قشتالة على عمه وحين تشعر بخبث ملك قشتاله وروغانه وضربه أحدهما بالآخر حتى أضعف الأميرين معاً وذهبت القتلى من حزبيهما بالآلاف فكان ذلك اكبر العون في سقوط غرناطة آخر بلدة مسلمة في يد الإسبان .

وفي آخر الكتاب فصل قيم الفائدة في (نزوح مسلمي الأندلس الى المغرب) وبيان المواطن التي حلها أهل كل بلد من الأندلس في المغرب . وتحس في عدة مواضع من الكتاب أن مؤلفه كتبه وهو يتحرق من الألم والتفجع وتجزم حين تقرؤه أن قلبه يكاد يتفطر من لوعته وأن عبرته ما ترقأ ، اسمعه وقد صور لنا غدر ملك قشتاله بعد ان عاهد المسلمين المستضعفين وسلم لهم بكل شروطهم كيف « اخذ في نقض الشروط شرطاً شرطاً ويحلها فصلاً فصلاً الى أن نقض جميعها وزالت حرمة الإسلام عن المسلمين وأدركهم الهوان والذلة ... ثم دعاهم الى التنصر واكرههم عليه فدخلوا في دينه كرهاً وصارت الاندلس كلها نصرانية ولم يبق من يقول فيها : (لا إله الا الله محمد رسول الله) جهراً .. وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الأذان وفي مساجدها الصور والصلبان بعد ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن !

فكم فيها من عين باكية وقلب حزين وكم فيها من الضعفاء والمعدمين لم يقدروا على الهجرة واللحوق بإخوانهم المسلمين ! قلوبهم تشتعل ودموعهم تسيل سيلاً غزيراً مدراراً وينظرون اولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ويسجدون للأوثان ويأكلون لحم الخنزير ويشربون الخمر ... فيالها من فجعةما أمرها ومصيبة ما اعظمها واضرها وطامة ما اكبرها ... وعم الكفر جميع القرى والبلدان وانطفأ من الاندلس نور الإسلام والايمان ، فعلى هذا فليبك الباكون ولينتحب المنتحبون فإنا لله وإنا اليه راجعون.[1]

***

نشر هذا الكتاب الأستاذ ألفريد البستاني من عدة مخطوطات و كتب مقدمته وحواشيه ووضع فهارسه وهو من منشورات مؤسسة الجنرال فرنكو للابحاث العربية الاسبانية بطنجة (المغرب) وتقرأ في مقدمة النشر كيف حصل على هذه المخطوطة التي اعتمدها والتي كتبت في القرن الثاني عشر للهجرة .

هذا ولست أقر الناشر في حكمه على بيان المؤلف بقوله : « أما من حيث اللغة فالاضطراب ظاهر في جميع النواحي »[2] ففي هذا الحكم مبالغة شديدة لأن الهفوات اللغوية من استعماله ضمير العقلاء لغيرهم كقوله (وهدمهم [يعني الأبراج] ص ٣٤) وحذفه نون الأفعال الخمسة من غير أن تسبق بناصب او جازم كما سنشير اليه، هذه الهفوات قليلة ولعلها من تحريف النساخ .

ومن الواجب علينا ان نعترف بأن الفهارس التي نشرها الاستاذ البستاني في آخر الكتاب قليلة الجدوى لأنها غير مرتبة على الحروف بل وضعت هكذا اعتباطاً على غير قاعدة واذا لم يراع في الفهارس ترتيب ما فما ندري ما وجه إثباتها . وهناك حاشية معادة (ص ٦ و٢٣) وخطأ في قراءة المخطوطة كما سيأتي .

وفي الكتاب أغلاط كثيرة كان على الناشر الفاضل أن يعرضه على أخبر منه في العربية ليتداركها له ونحن مشيرون الى اهمها :

---

(١) ص ٦٤ ، ٦٥ (٢) ص 19

فمنها ما يعود الى الرسم كهذه الكلمات :

تحيي وصوابها تحيا — دعى وصوابها دعا — الاستأذان وصوابها الاستئذان

فتفقنا وصوابها فاتفقنا مؤريخي : مؤرخي — ١ المبدي : المبدئ — المنشي : المنشئ

٢ علي ابن سعد : علي بن سعد — ٦ عن من : عمن — ٣٥ أولائك : أولئك ٤٤ سبي

نسائهم : سبي نساءهم — ٥٩ بنوا عبيد : بنو عبيد ، بنوا منديل : بنو منديل

ومنها ما يعود الى ضعف في عربية الناشر وخطئه في قراءة المخطوطة وعدم اهتدائه الى تحريف النساخ والإشارة الى الصواب فيه :

خطأ	صواب	خطأ	صواب
٢ حدوث	حروب	٢٩ مداقًا	مدافعًا
٥ انبثها	اثبتها	٣٦ فارتحل	ارتحل
الانتفاض	الانتقاض	٤٠ المسلمون	المسلمين
٧ يأمراهم	بأمرائهم	٤٤ والمعدومين	والمعدمين
بل والدنو	بل الدنو	٤٦ زمامتهم	ذمامتهم
٨ يعلموهم	يعلمونهم	٤٧ ان يعينونه	أن يعينوه
٢٤ نفذ	نفد	٤٧ ثلاثة سنين	ثلاث سنين

٢٦ وُقتل منه خلقاً : وقتل معه خلق ٧٧ ليعاقبونهم ليعاقبوهم

وهناك نقص وابهام في بعض الجمل فقوله ص ٨ (نعمل الحيلة في الدخول عليهم والتقصير والتفريط .) فيه نقص لم ينتبه اليه الناشر وقوله ص ٢٧ (ولم يتركوا شيئًا الا سقف المدينة خاصة) و ص ٤١ (اضمروا عليه الا عفوهم من حينهم) مما لا يفهم في الجملتين تشويه كان على الناشر أن يجتهد في ازالته ليتضح معنى المؤلف. وهذه المآخذ كثيرة في هذه الرسالة الصغيرة التي لا تتجاوز ٤٨ صفحة .

وهذا بعض ما رأينا في مقدمته هو من اغلاط عدا التي مرت في أغلاط الرسم بالرقم الفرنجي :

خطأ	صواب	خطأ	صواب
3 فهابهم جلال المكان	فهابوا جلال المكان	الأمتين التي	13 الامتين اللتين
8 الخضيل	الخضل	عدا عن الأغلاط	17 عدا الأغلاط
11 سوريا	سورية	لوحده العصمة	19 له وحده العصمة
12 يغيرون	يغارون		

وقوله ص 11 : (بينا كان العراق يتفرس وسوريا تترك ومصر تتطور بتأثيرهم وتتأثر بتطورهم) غير صحيح ولو قال كاد بدل كان لكان لذلك وجه .

ولا تخلو لغته من ركاكة كتتابع الإضافات في قوله ص 7 « من تاريخ مراحل آخر ايام مجدك » وكقوله ص 11 : « بدرجات سلم المقاييس الأدبية المرهونة بحرارة مزاج أعصاب الفاتحين »

ومع أملنا الوطيد في أن الاستاذ البستاني سيأخذ نصيحتنا المخلصة أخذ الغيور على لغته ليس يسعنا الا أن نثني على عاطفته العربية الحارة التي أشعرنا بها في أول الكتاب وان نتمنى على الله أن يوفقه في نشر تحفنا الضائعة وأن نعود فنشكره في هذه المجلة ثانية وثالثة ان شاء الله [1]

سعيد الافغاني

---

(١) في آخر القسم العربي من الكتاب رسالة بعث بها عبد الله محمد بن نصير سلطان غرناطة إلى الدون خوان الثاني سلطان قشتاله وليون بتاريخ ٥ من ذي القعدة عام ٨٤٦ هـ مع صورتها الفتوغرافية وهي بأسلوب غريب .

تاريخ حمص – القسم الأول – للخوري عيسى اسعد

عدد صفحاته ٤٤٧ ويحتوي على ٣٤ صورة ، طبع في حمص عام ١٩٣٩

شاء المؤلف ان يضيف الى سلسلة تاريخ سورية حلقة جديدة جمع فيها أخبار حمص منذ نشأتها الأولى حتى الفتح الاسلامي ، ومن يطالع هذا الكتاب يدرك الجهود التي بذلها المؤلف حتى جمع أخبارها ووفق لاستنتاج حوادثها لا سيما في اقدم عصورها . يستدل من عنوان الكتاب بأن المؤلف قد اقتصر على تاريخ حمص والحقيقة قد تعداه الى بعض أخبار الديار الشامية ومن بسط سلطانه عليها من الأمم المجاورة وذلك تعميماً للفائدة وتنويراً للحقيقة .

يتجلى في ابحاث هذا الكتاب عطف المؤلف على مدينته حمص وعصبيته لها فأحب أن يبر بها ويجعل لها تاريخاً عريقاً بالقدم يتفق مع ما يرغبه لها من المكانة التاريخية فقدمها على سواها من امهات المدن مثل قدش وقطنا وتونانات وغيرها من البلدان التي رددتها الوثائق التاريخية وقد اختار لها اسم (صوبا) الوارد ذكرها بالتوراة مع ان هذا اسم مقاطعة لا اسم بلدة واليها نسبت (حماة صوبا) و (ارام صوبا) كما نقول اليوم دمشق الشام وطرابلس الشام . واما استدلاله عن نشأتها الأولى بموقعها الجغرافي وازدهارها الزراعي فحجته فيه ضعيفة . وكل ما يمكن قوله اليوم — ان سلمنا بقدم حمص — انها كانت قرية نكرة لا حول لها ولا قوة والا لما اغفل اسمها واغمط حقها في العصور المتقدمة . وما نعلمه ان حمص بدأت شهرتها في العهد السلوقي حينما ازدهرت في ظل اسرة شمسيغرام العربية فتبوأت حينئذ مكانتها في تاريخ سورية .

جعفر الحسني

انساب الأشراف للبلاذري

أخذت الجامعة العربية في القدس تنشر كتاب انساب الأشراف لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري صاحب كتاب فتوح البلدان المتوفى سنة٢٧٩ وذلك عن النسخة الوحيدة المحفوظة في احدى دور كتب الاستانة . « وانساب الأشراف هذا يشتمل على تاريخ العرب في جاهليتهم واسلامهم الى القرن العباسي الأول ولكنه لم يرتب على سني الهجرة بل اتبع ترتيبه أنساب قبائل العرب . فاذا عرض ذكر رجل نابه في قومه أتى بخبره ونكتته المستجادة وما قيل فيه من الشعر او بطائفة من شعره ان كان شاعراً واذا جاء ذكر خليفة من الخلفاء لم يقتصر على وصف سيرته بل أحيط بحوادث وقته » .

وقد تولى تصحيح الجزء الرابع من الكتاب الاستاذ غويتاين فجاء الأصل في ٣٧٩ صفحة عدا الفهارس والتعاليق التي جعلت بالعربية والعبرية والانكليزية وتولى تصحيح القسم الثاني من الجزء الرابع الاستاذ شلوسنجر فجاء في ١٧٠ صفحة عدا الفهارس والتعاليق وهي أيضاً بالعربية والعبرية والانكليزية . وقد بذل الناشران عناية فائقة في تصحيح المتن فاستحقا ثناء العلماء على عملهما المشكور واستحقت الجامعة الشكر الجزيل على احيائها هذا الكتاب الأُم من كتب التاريخ بهذا الاتقان بالطبع والوضع .

وقد وقعت للأستاذين الناشرين بعض هنات نرى أن نلفت نظرهما الى بعضها ومنها في الجزء الخامس صفحة ٩٧ خ ُمزِجت أماناتهم — ص مرَجت أماناتهم ص ١٧٤ . اهل المعادن — اهل المعاون ٢٠٦ : وذربة الرماح — ودريئة الرماح . وأشياء من هذا القبيل واكثرها مما يغتفر . اما في القسم الثاني من الجزء الرابع فقد وقع فيه هنات في الاملاء والرسم قليلة وأشياء مثل ص ٨٦ : آكولا : أكولا .

١٢١ : ونادبتم أهل بلدكم — ناوأتم ١٣٦٠ : سخياً لسيناً — لسناً ص ٣ بالقسر قذونة : بالخذقدونة ويقال خلقدونة وهو الثغر الذي منه المصيصة وطرسوس واذنة وعين زربة ويقال لها الغذقدونة أيضاً كما في معجم البلدان لياقوت

وهذان البيتان اللذان نسبا زوراً لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية وفيهما ورد اسم الخذقدونة مما وضعه عليه المنحرفون عن بني أمية : والبيتان

وما أبالي بما لاقت جموعهم بالخذقدونة من حمى ومن موم
اذا اتكأت على الأنماط مرتفقاً بدير مران عندي ام كلثوم

وقد وردا في البلاذري مقلوبين اي الأول ثانياً والثاني أولاً

وكذلك يقال فيما أورده له البلاذري في الصفحة الأولى من أبيات ادعى الراوون أن يزيد قالها لامرأته أم خالد ما إخالها تصدر عن أعظم الخلعاء فكيف عن خليفة أعداؤه أكثر من أوليائه والعهد بالدين قريب والصحابة والتابعون بالمرصاد يرجعون الى الدين كل من ضل عن الجادة . وقد وقعت للبلاذري أشياء نقلها عن رواة غير ثقات يقصد بها التهويج وارضاء بني العباس وبني علي ولو صح واحد من عشرة مما اتهم به يزيد بن معاوية لسارع أهله قبل كل الناس الى قتله . والبلاذري منحرف عن بني أمية مثل الواقدي وأبي مخنف سامحهم الله .

محمد كرد علي

ليالي الملاح التائه

للاستاذ علي محمود طه : شركة فن الطباعة بمصر ، صفحاته ١٤٩

ديوان شعر لطيف الحجم صقيل الورق وجميل الطبع والتصوير ، يدلُّ على تقدم فن الطباعة بمصر وهو يشتمل على سبع وعشرين قصيدة ، قوية الشعور ، محلقة الخيال مع سبك عربيّ الاسلوب ونزعة الى التفنن والتجديد

عبقر

للاستاذ شفيق المعلوف ، صفحاته ١١٢

ويدل هذا الديوان أيضاً على تقدم فن الطباعة العربية تقدماً لا تحسد معه الطباعة الغربية على أبداعها ، وشعر الاستاذ شفيق رقيق التعبير ، يشبه الموشحات بافنانه ، وتزينه صور فنية للمصور الايطالي فرنكو شيني ، فالديوان على ذلك من طرف الفن بتعبيره وتصويره .

آراء وانباء

دار الكتب الوطنية في حلب

حدث خلال توقف مجلة المجمع العلمي العربي عن الصدور ، حادث يرتاح لذكره جمهرة المثقفين في الديار الشامية . وهو انه ما كاد الامير مصطفى الشهابي أحد اعضاء مجمعنا يتقلد في اوائل السنة ١٩٣٧ منصب محافظ مقاطعة حلب ، حتى جعل في مقدمة اعماله تشييد بناء عظيم يتخذ داراً للكتب وغرفاً للمطالعة وردهة للمحاضرات . ومن المعروف ان مدينة الشهباء كانت حتى ذلك اليوم خالية من بناء يحاكي المدرسة العادلية او الظاهرية او مدرج الجامعة السورية في دمشق ، وان فرع المجمع العلمي في حلب لم يكن له بناء للاجتماع والمحاضرة وحفظ الكتب والمطالعة .

وعندما راجع الأمير الشهابي مجلس الوزراء في هذا الصدد ، وجد أن تدارك المال من ميزانية الدولة ، لتشييد البناء المذكور ، يكاد يكون من مستحيلات الأمور . فعمد عندئذ الى خطة لا ينازعه في تنفيذها منازع . وهي انه لما كانت بلدية مدينة حلب وبلديات الأقضية والنواحي في تلك المقاطعة تابعة جميعاً للمحافظ ، أصدر قراراً بأن تخصص كل بلدية تابعة لمحافظة حلب عُشر وارداتها لتنفق على إقامة دار الكتب في مدة سنتين . وقد أصاب بلدية مدينة الشهباء نصف النفقات . وكان النصف الثاني من نصيب بلديات الأقضية والنواحي . وهكذا أمكن جمع خمسين الف ليرة سورية (بسعر تلك الأيام) وهو المبلغ الذي اجمع المهندسون على انه كاف لاقامة البناء .

وبعد ان سهل المال وجب الحصول على أرض تصلح للغرض المطلوب . وهنا تذكر الامير الشهابي انه عندما كان مديراً لأملاك الدولة السورية خصص لمديرية البريد والبرق العامة أرضاً واسعة ثمينة تقع في اهم بقعة من المدينة اي في ساحة

باب الفرج ، لكي تبني المديرية المذكورة عليها بناء لدائرة البريد والبرق في حلب . وتذكر انه مرّ على هذا التخصيص بضع سنوات دون ان يشاد البناء المطلوب على تلك الأرض ، وانه ربما مرت سنوات عديدة أخرى والأرض باقية علي حالها . ولذلك سعى في مجلس الوزراء حتى ابطل ذلك التخصيص وحوله على اسم وزارة المعارف لتبنى دار الكتب الوطنية على الارض المذكورة .

فأصبح هذا المشروع المفيد مشتركاً بين بلديات محافظة حلب صاحبة المال المنفق على البناء ، ووزارة المعارف (او المجمع العلمي) التي تتصرف بأرض البناء العائدة لبيت المال .

ولهذا عقد الأمير بين الفريقين اتفاقاً يقضي بأنه عند ما يتم البناء يسجل في السجلات العقارية على اسم بلديات محافظة حلب ، ويخصص لفرع المجمع العلمي في مدينة الشهباء ، فينقل اليه خزانة كتبه ، ويشرف على شؤونه ، ويمارس أعماله فيه كما هي الحال في العادلية والظاهرية بدمشق .

وبعد ان مهد صاحب المشروع جميع العقبات ، حمل دائرة الاشغال العامة في حلب على مباشرة هذا العمل الجليل ترجيحاً على سائر اعمال تلك الدائرة . وقضى سنتين وبضعة أشهر وهو يشرف شخصياً على صنع الخرائط والتصميمات وعلى أعمال البناء . ولم يغادر منصبه في السنة ١٩٣٩ حتى كان البناء قد تم ، ولم يبق سوى الأعمال التكميلية فأكملت بعدئذ على حسب الخرائط والخطط المقررة .

وعلى هذا اصبحت الشهباء تشتمل اليوم في أجل مواقعها على بناء عربي فخم شيد باحجار كبيرة لا يقل طول واحدها عن ٤٥ سنتيمتراً . وكثير من هذه الأحجار حمر رخامية من التي تسمى « سماقية » في حلب و « مزية » في دمشق . ويقول العارفون ان دار الكتب الوطنية في حلب هي اليوم أجمل المصانع الحديثة في مدينة الشهباء بلا امراء .

وقد جعلت الطبقة الأرضية من البناء مدرجاً للمحاضرات يتسع لخمسمائة مستمع ، كما جعلت الطبقة العليا غرفاً تتسع لأربعين الف مجلد ولمائة مطالع ، عدا غرف الإدارة .

ذكرى المولد النبوي

يحتفل المسلمون كل عام بذكرى مولد الرسول عليه الصلاة والسلام احتفالاً رائعاً ، وأي ذكرى أحق من هذه العناية وليست هذه العناية بالمولد قديمة .

ولم يرو عن الصحابة والتابعين ، وأول ما نقل الينا أن الخيزران والدة هارون الرشيد اصلحت البيت الذي ولد فيه رسول الله . أما الاحتفال بذكرى المولد نفسها فلم يظهر الا في عصر الفاطميين الذين عدوا يوم الذكرى عيداً لدولتهم تقام فيه الزينة وتلقى الخطب والمواعظ .

ولم يجعل أهل السنة لهذا اليوم شأناً خاصاً الا منذ عام أربع وستمائة فقد بالغوا في هذا العام لأول مرة بالاحتفال بهذا اليوم وزينت إربل عاصمة الملك مظفر الدين كولاكبري صهر صلاح الدين يوسف بن أيوب وانقدت الأنوار الساطعة ، وقرعت الطبول والموسيقى وأنشد المنشدون وظهر الملك المظفر صباح يوم الذكرى على برج مشيد من خشب وانتصب واعظ على منبر بجانبه يعظ الناس .

وطفق المسلمون من اهل السنة من ذاك اليوم يتخذون يوم المولد عيداً دينياً شعبياً . ولما ظهر الاحتفال بهذا المظهر ، أجمع الفقهاء على القول بأن الاحتفال وان كان بدعة فانما هو بدعة حسنة لاتصاله بشخصية الرسول المعظم . ثم ما عتم أن سرت الى يوم الذكرى ضروب من المراسم أثارت ثائر بعض الائمة كابن تيمية في المتقدمين والامام محمد عبده في المتأخرين فشنوا الغارة على صورة الاحتفال ووجدوا في الأناشيد التي ترتل نزعة من النزعات الصوفية لا يقرها الإسلام الصحيح ووجدوا في النصوص التي تقرأ عن مولد الرسول ابتعاداً عما يجب أن يقال من سيرته الشريفة مما ورد في الأثر واسفرت حملتهم عن توجيه علماء المسلمين الى الاحتفال بالذكرى وجهة حسنة لاتخرج عن هدى الدين وذلك بقراءة شيء من السيرة النبوية المنقولة في الكتب الموثوق بها وبالقاء الخطب يذكر فيها شأن الإسلام وأثر الدعوة المحمدية ويحض الناس فيها على التحلي بالأخلاق النبوية . وكان الاحتفال بهذا يوماً يبعث في نفوس المسلمين بهجة بعيد يذكرون فيه المثل العليا التي حض عليها رسول الله . وحسنت ذكرى مولد رسول الهدى .



الجزء الرابع   نيسان سنة ١٩٤١   ربيع الآخر سنة ١٣٦٠

تآليف ابن العديم

كان أجداد ابن العديم قضاةً تسلسل فيهم العلم اجيالاً ، وكان من وراء نعمة عظيمة تجمعت لأهله بطول الزمن . جاء اهله في القرن الثاني من البصرة ونزلوا حلب تجاراً ، وبعد حين اشتغل بعضهم بالعلم فانقلبت تجارتهم ، وبان الأدب والذكاء على كثير من ابنائهم ، حتى اذا كان القرن السابع نبغ آخرهم صاحب المكانة الكبرى في عالم العلم والأدب ، فهو وارث مجد أسرته اعانه الغنى علَى الظهور بالعلم ففاق الاقران وخلد اسمه في سجل الزمان .

غرست الفطرة في ابن العديم صفات نادرة كانت عوناً له على ما أخذ نفسه به من الدرس ، وعلى تجلي عبقريته وانبعاث قريحته ، هذا مع كثرة العلماء في بلده على عهده . وكان هو مفنناً فناناً ، مفنناً بالعلم الذي تلقاه عن علماء عصره وبه اعد نفسه لتولي منصب قاضي القضاة في مدينة عظيمة ، فبرز في الفقه والحديث والادب والانشاء والشعر والتاريخ وكل ما تكمل به أدوات القاضي والمفتي . وكان فناناً لأنه رزق الاجادة في الخط حتى كان رأساً في الخط المنسوب ولا سيما النسخ والحواشي ، وكان يقرأ الخط المعقد كأنه يقرأ من حفظه ، وقالوا انه اكتب من كل من تقدمه بعد ابن البواب ، وله كتاب في الخط وعلومه ووصف آدابه واقلامه وطروسه . عاش كأغنياء العلماء واخذ العلم عن علماء حلب ودمشق ، ورحل الى الحجاز ومصر

والعراق ، وكان اذا سافر يركب في محفة تشيله بين بغلين ويجلس فيها ويكتب .

هذا هو كمال الدين عمر العقيلي الحلبي رئيس الشام (٦٦٦ هـ) وكان يطلق على اسرته اسم بني جرادة ثم غلب على بيتهم اسم « العديم » ، وكان جميع أهل هذا البيت منذ كان الاسلام يحفظون الكتاب العزيز . وقد تولى خمسة منهم على التوالي منصب قاضي القضاة بحلب ، وكان كمال الدين واسطة عقدهم اشتغل بالسياسة والعلم فتولى الوزارة مرتين : الأولى للملك العزيز والثانية للناصر آخر بني ايوب ، وذهب بالسفارة عنهما الى بغداد والقاهرة . ولا يتولى الوزارات في الغالب إلا الاكفياء ، ولا ينوب عن صاحبه في السفارات الا أرباب الكفاءات المعترف بها .

ألف كمال الدين وصنف وكتب بخطه الجيد ألوفاً من الصفحات ومن جملة ما كتب بخطه البديع ثلاث خزائن من الكتب : واحدة لنفسه وخزانتان لابنيه لكل منهما خزانة فاذا فرضنا أن كل خزانة تضم مئة مجلد وهو أقل تعديل فيكون مجموع ما كتب ثلثمائة مجلد عدا تآليفه الممتعة التي نمت على تحقيقه وبحثه ولم نعرف منها سوى ثلاثة .

الأول من كتبه (ومنه نسخة في خزانة المجمع العلمي العربي بدمشق) رفع الظلم والتجري عن ابي العلاء المعري أو الانصاف والتحري ، ذكر فيه كل ماله اتصال بأصل المعري ومنشئه وأدبه وعلمه وتصانيفه ورحلته الى بغداد في طلب العلم وما وقع له طول حياته من الحوادث ومن كان يعطف عليه من أهله وكلهم معروفون بالأدب والشعر ومن كان يستملي منه مصنفاته ومن يكتب له ليل نهار وكان أربعة في جرايته وجارية ، وذكر من أخذ عنه . والمقصد من كل هذا الكتاب تبرئة المعري من التعطيل وكان اعداؤه ينحلونه أبياتاً او يحرفون ابياتاً من شعره ليصححوا دعواهم عليه باختلال العقيدة . واهم جزء من الكتاب (وهو دفع دعوى الإلحاد عن أبي العلاء) ناقص من النسخ التي عرفت من الكتاب على أن ذلك لا يمنع من نشره بالطبع لما فيه من الفوائد التي أثرت عن شيخ المعرة وحكيمها وأديبها .

والثاني تذكرة ابن العديم وجد منها مجلد ، في بضعة أجزاء أولها الجزء الخامس وآخرها الجزء السادس عشر وفيها فوائد أدبية وتاريخية كثيرة وهي جديرة بالطبع أيضاً ، ومما جاء في أولها لعلي بن ابراهيم بن عبد المحسن بن قرناص الخزاعي الحموي :

جفني بجفنك قد جفاه هجوعه والقلب واصله عليك ولوعه
وسقام جسمي فيك عز ذهابه والنوم عزّ على الجفون رجوعه

ومما جاء فيها : انشدني منجب الدين ابن الامان المذكور قال أنشدني القاضي وجيه الدين ملهف ابن الصنديد الشيزري قال انشدني للأمير شرف الدولة ابن منقذ نفسه وكانت الزلزلة قد خربت شيزر سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة وسقطت القلعة على أخيه وأولاده وزوجته الخاتون اخت شمس الملوك فسلمت دونهم ونبشت من الردم فجاء نور الدين محمود بن زنكي الى شيزر وتسلمها وطلب من زوجة أخيه أن تعلمه بالمال وتهددها فقالت له : ان الردم سقط عليها وعليهم ونبشت سالمة دونهم ولا تعلم بشيء وان كان لهم شيء فهو تحت الردم . وكان شرف الدولة غائباً فلما حضر ورأى شيزر وما حل بها وعاين زوجة أخيه بعد العز في ذلك الذل عمل :

ليس الصباح من المساء بأمثل فأقول لليل الطويل ألا انجلي
شلت يد الأيام ان قسيّها ما أرسلت سهماً فأخطأ مقتلي
لي كل يوم كربة من نكبة يهمي لها جفني وقلبي يصطلي
يا تاج دولة هاشم بل يا أبا التيجان بل يا قصد كل مؤمل
لو عاينت عيناك قلعة شيزر والستر دون نسائها لم يسدل
لرأيت حصناً هائل المرأى غدا متهيلاً مثل النقا المتهيل

ومنها يشير الى زوجة أخيه المذكورة

نزلت على رغم الزمان ولو حوت يمناك قائم سيفها لم تنزل
فتبدلت عن كبرها بتواضع وتعوضت من عزها بتذلل

وقال في أخيه :

ودُفنت بين ثلاثة ضاجعتهم   كالليث ضاجعه ثلاثة أشبل

وكان هذا الزلزال من أشد ما منيت به بلاد الشام في القرون الوسطى هلك فيه كما قال ابن الأثير مالا يحصى كثرة وخرب منها بالمرة حماة وشيزر وكفر طاب والمعرة وأفامية وحمص وحصن الأكراد وعرقة واللاذقية وطرابلس وانطاكية . واما كثرة القتلى فيكفي أن معلماً كان في حماة ذكر عنه أنه فارق المكتب لمهم عرض له ، فجاءت الزلزلة فخربت البلد وسقط المكتب على الصبيان جميعهم ، قال المعلم : فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له بالمكتب . أما حصن شيزر وهو على نصف نهار من حماة فكان لآل منقذ الكنانيين فلم ينج منهم أحد ، وسبب هلاكهم أجمعين أن صاحبها كان قد ختن ولداً له وعمل دعوة للناس ، واحضر جميع بني منقذ عنده في داره ، وكان له فرس يحبه ولا يكاد يفارقه ، واذا كان في مجلس أقيم الفرس على بابه ، وكان المهر في ذلك اليوم على باب الدار ، فجاءت الزلزلة فقام الناس ليخرجوا من الدار فرمح الفرس رجلاً كان أولهم فقتله ، وامتنع الناس من الخروج ، فسقطت الدار عليهم كلهم وخربت القلعة وسقط سورها وكل بناء فيها ، ولم ينج منها الا الشريد .

وكان بنو منقذ اصحاب قلعة شيزر (واليوم يقال لها سيجر) سلسلة جميلة في الشعر والأدب كما كان بنو العديم في حلب سلسلة متصلة الاسانيد بالقضاء . خربت قلعة شيزر والى اليوم لا تزال خراباً يباباً ، وأدب بني منقذ ما زال محفوظاً في الدواوين يتناقله المتأدبون ويعجب به الشادون والمحققون . وكان آخرهم أسامة (٤٨٨ — ٥٨٤ هـ) من أئمة الأدب عرفناه من الكتب التي أبقت الأيام عليها ، ومنها كتاب الاعتبار ذكر فيه آل بيته وشجاعتهم وبطولتهم وما كان لهم على عهد الصليبيين في الشام من مغامرات ومن كتبه (كتاب العصا) ومنها (لباب الآداب) وكلها مطبوعة تشهد لأسامة بالعلم والنبوغ .

ومما أثره من مذكرة ابن العديم مانقله للسابق ابي اليمن محمد بن الخضر المعري في حلب:

حلب معهد الصبا والتصابي فسقاها الوسميُّ ثم الوليُّ
موطني بعد موطني فكأني لغرامي بحبها البحتريُّ

الى ان قال :

فلديها كل الفنون وفيها ما اشتهاه الشرعي والفلسفي
غير أني أرى الاطايب شزراً وحليف الافلاس عنها قصيُّ

ومما اقتبسه أبيات لسنان صاحب الدعوة الاسماعيلية وهي

لو كنت تعلم كل ما علم الورى طراً لكنت صديق كل العالم
لكن جهلت فصرت تحسب أن من يهوى خلاف هواك ليس بعالم
فاستحي ان الحق أصبح ظاهراً عما نقول وأنت شبه النائم

ترجم لسنان الملقب براشد الدين صاحب الوفيات فقال انه صاحب قلاع الدعوة ومقدم الباطنية بالشام واليه تنسب الطائفة السنانية (او النزارية) وهو الذي هدد صلاح الدين يوسف بقوله

ياذا الذي بقراع السيف هددنا لا قام مصرع جنبي حين تصرعه
قام الحمام الى البازي يهدده واستيقظت لأسود البر أضبعه
اضحى يسد فم الأفعى بإصبعه بكفيه ما قد تلاقي منه أصبعه

وكتب مرة أخرى :

بنا نلت هذا الملك حتى تأثلت بيوتك فيها واشمخر عمودها
فأصبحت ترمينا بنبل بنا استوى مغارسها منا وفينا حديدها

أما الكتاب الثالث الباقي من تأليف ابن العديم فتاريخ زبدة الحلب في تاريخ حلب (منه نسخة مصورة في دار الكتب المصرية نقلت عن مخطوطة الاستانة) فالظاهر انه أحسن كتبه ولم يبيضه وفيه كلام على جغرافية بلاد حلب وبحيراتها وجبالها وتربتها وهوائها ومائها وخراجها وعادياتها ، وذكر فيه مدناً تعد اليوم من كيليكيا والجزيرة مثل اذنة والكنيسة السوداء وطرسوس ومسيس والحدث الحمراء وملاطية

وسميساط ورعبان ودلوك الى غير ذلك من الحصون والبلاد . وتكلم على جيحان نهر المصيصة وسيحان نهر اذنة والعاصي نهر انطاكية وحماة والبردان نهر طرسوس . وبذلك عرفنا أن عمل حلب في عهده كان واسعاً جداً اكبر من مملكة من الممالك الصغرى لعهدنا . وفيه فصل من اجمل فصول الكتاب فيمن نزل من قبائل العرب باعمال حلب ومن كان قبلهم . ونقل شرط عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أهل قنسرين وهو ثمانية وأربعون درهماً على الغني وأربعة وعشرون على الوسط واثنا عشر على المدقع ، وما اشترطه عليهم للنازل بينهم من المسلمين والا يحدثوا كنيسة الا ما كان في أيديهم ولا يضربوا بالناقوس الا في جوف بيعة ولا يرفعوا أصواتهم بالقراءة ولا يرفعوا صليباً الا في كنيسة وأن يؤخذ منهم القبلي من الكنائس للمساجد ، وان يقروا ضيوف المسلمين ثلاثاً ، وألا يكون الخنازير بين ظهراني المسلمين ، وان يناصحوا المسلمين ولا يغشوهم ، ولا يمالئوا عليهم عدواً ، وان يحملوا راجل المسلمين من رستاق الى رستاق ، وألا يلبسوا السلاح ولا يحملوه الى العدو ، ولا يدلوا على عورات المسلمين ، فمن وفى وفى المسلمون له ، ومنعوه مما يمنعون به نساءهم وابناءهم ، ومن انتهك شيئاً من ذلك حلّ دمه وماله وسباء أهله وبرئت الذمة منه ، و كتب بذلك كتاباً .

واستفدنا من هذا التاريخ أن حلب كانت من أكثر المدائن شجراً فأفنى شجرها وقوع الخلف بين سيف الدولة بن حمدان وبين الإخشيد أبي بكر محمد بن طغج ، فان الاخشيد كان ينزل على حلب ويحاصرها ويقطع شجرها فاذا أخذها وصعد الى مصر جاء سيف الدولة وفعل بها مثل ذلك . وتكرر ذلك منهما حتى فني ما بها من شجر ، واتفق نزول الروم على حلب سنة ٣٥١ ففني شجر الشربين لذلك .

ورأينا له في هذا الكتاب تحقيقات تدل على تأنيه وبعد غوره منها أن ابن القارح ذكر في رسالته حكاية نسبها الى أبي الطيب قال وهذا عجيب فإن أبا الطيب ولد سنة ٣٠١ فكيف تصح هذه الحكاية . قال ابن العديم ولعله غير أبي الطيب ثم بعد حين كتب انه تبين ان الأمر كذلك ، وهذا المتنبي الذي ذكره المؤرخ هو أحمد بن عبد الكريم الأصفهاني .

ويقول ابن الشحنة في تاريخ حلب : أن كمال الدين بن العديم اتقن في تاريخه واجاد واطال ولم يبيض منه الا اليسير وأطال فيه من ذكر الروايات والطرف فجاء بمعنى قليل في لفظ كثير ولم يسبقه أحد بتاريخ لها على الخصوص وسماه « بغية الطلب في تاريخ حلب » رتبه على حروف المعجم كما أخبرني بذلك الأمير النقيب بدر الدين الحسيني نقيب السادة الأشراف بالمملكة الحلبية رحمه الله ان مسودته كانت تبلغ نحو اربعين جزءاً كباراً والمبيضة تجيء كذلك لكن اخترمته المنية قبل اكمال الأمنية وتفرقت اجزاؤه قبل الفتنة التيمورية فلا تجد الآن منها الا نزراً ولم أقف منها الا على جزء واحد بخطه فيه بعض حرف الميم ...

محمد كرد علي



بعث قصيدتين

من مرقدهما لعديّ بن الرقاع العامليّ

كان صديقنا الاستاذ خليل مردم بك قد نشر في مجلتنا هذه شعر عديّ بن الرقاع العاملي مع ترجمة له حسنة(*) ، وباطلاع الاستاذ المستعرب سالم الكرنكوي عليهما كتب اليه كتاباً يذكر فيه انه كان قد جمع في الماضي ما تيسر له تحصيله من شعر عديّ ، وانه أرسله مع ترجمته المنقولة من تاريخ دمشق الى الاستاذ غويدي لعزم أحد تلاميذه على وضع اطروحة له في عديّ وشعره ، ليتقدّم بهما الى جامعة رومة في سبيل الحصول على درجة الحكمة (الدكتورية) في الأدب .

ثم ظفر الاستاذ الكرنكوي بنسخة غير جيدة من كتاب الخيل لأبي عبيدة معمر بن المثنى منقولة عن نسخة قديمة في المدينة المنورة كتبت سنة ٣٥٢ للهجرة ، وهو اليوم مكبّ على تصحيحه لينشره للناس ، وفي آخره عدة أشعار لقدماء شعرائنا بينها شعران في وصف الخيل لعديّ بن الرقاع ، وكان عديّ كطفيل الغنوي مشهوراً بمعرفة الخيل واجادة نعتها ، وقد بعث العلاّمة الكرنكوي بهاتين القصيدتين الفقيدتين لتنشرا في مجلة المجمع العلمي العربي فله جزيل الثناء ، وقد شرحتهما شرحاً كافياً لإفادة القرّاء ، والقصيدتان هما :

قال ابن الرقاع العاملي ، يخلط فيها بقول أبي دواد :

١ ولقد أغتدي بأجردَ نهدٍ   لاحه بعد صَنعهِ المِضمارُ

٢ أيدُ القصرَيين ما قِيد يوماً   فيعنّى بصرعهِ بَيطارُ

(*) راجع المجلد الخامس عشر من هذه المجلة تجد (مختارات من شعره) في الصفحة ٤٥٠ .

(١) الصنع بفتح الصاد مصدر صَنع الفرس يصنعه صَنعاً وصنعة اذا أحسن القيام عليه .

(٢) القصريان : ضلعان تليان الترقوتين ، او اللتان تليان الشاكلة بين الجنب والبطن كما في التهذيب ، والصرع الطرح على الارض .

٣ حَوشب الخلق أُفرعت كتفاهُ عن محاني ضلوعهِ إجفارُ

٤ واذا اهتزَّ مقبلاً زانَ منه أتلعٌ ما يُنال منه العذارُ

٥ ويُرى مُجفراً إذا هو ولّى في حَماتيه شدةٌ وانبتار

٦ ونسورٌ لها حوافر منه لا يُرى في أرساغهن انتشارُ

٧ كالجلاميد بالمسيل تملاّ هنّ في الماء خضرةٌ واصفرارُ

٨ مَشقَ اللحمُ عن حَماتيه مَشقاً فتعالى واشتدت الأوتارُ

٩ وعلى الزَوْر منبض القلب منه بجيازيم بينها أسيارُ

١٠ فهو طافٍ أقبّ كالمسد الأملسِ عاري الشوَى مُمرٌّ مُغارُ

١١ شاخِص الحرتين يَنفخ منه قُطعَ الرَّبوِ مَنخرٌ نَثارُ

---

(٣) الحوشب: العظيم البطن ، الافراع : الارتفاع والانحدار، والاجفار الاستكراش وانتفاخ الجنبين ويستقيم المعنى اذا اعتبرت (عن) مصحفة عن (في) . (٥) المجفر : اسم مفعول من الاجفار وهو العظيم الجنبين ، والحماتان : اللحمتان في عرض الساق تريان كالعصبتين من ظاهر وباطن والجمع حموات ، والانبتار : الانقطاع. (٦) النسور : الشواخص اللواتي في باطن الحافر. والانتشار : الانتفاخ في العصب للاتعاب. (٨) المشق: جذب الشيء ليمتد ويطول، ومن الفرس المشيق اي الطويل الضامر والأوتار هنا أربطة العضلات. (٩) الزور : بفتح الزاي الصدر. (١٠) (طافٍ) :اسم فاعل من طفا يطفو يقال: طفا الثور الوحشي على الاكم والرمال اذا علاها ، ويقال مرّ الظبي يطفو اذا خف واشتد عدوه، والمعنيان يجوز وصف الجواد بهما ؛ (الأقبّ) ذو القبب وهو دقة الخصر وضمور البطن ؛ و (المسد) الحبل من الليف يُمسد أي يمرّ فتله، وفي الكتاب: في جيدها حبل من مسد . والشوى الاطراف، والجواد تكون قوائمه عارية من الشعر ، و (ممرّ ومغار) اسما مفعول من أمرّ الحبل اذا شد فتله، يقال : حبل مغار الفتل وفرس مغار شديد المفاصل .

(١١) الحرّتان: الأذنان ، قال زهير :

قنواء في حُرَّتيها للبصير بها عتق مبين وفي الخدين تسهيلُ

و(قطع الرّبو) يقال أصاب الفرس قُطع بضم القاف وسكون الطاء مع ضمها أي ضيق نفس من العدْوِ ، والرّبو البهر وانقطاع النفس ، وكأنما أراد الشاعر ان سعة منخريه المحمودة في الخيل تقصي عند ضيق النفس اذا عدا .

١٢ وهو شاحٍ كأن لحييه خوّا   قتب لاح منهما النجارُ

وقال أيضاً :

١ على كلّ سلهبة لاحها   طرادُ المسالح أو سلهبِ

٢ أشقّ شخيص كتيس الفلا   ةِ يستنُّ أو جؤذر الحلبِ

٣ اذا ما تصعلك من حشوةٍ   فأصبح كالفردِ الأشعبِ

٤ أمِرّت حوامل اوصاله   كما تستمرُّ قوى القنبِ

٥ وأشرف حاركه والقطا   طُ منه على طأةِ المركبِ

٦ على أن مجتمع القصريـ   نِ ابس بغوطٍ ولا أحدبِ

٧ كميت كأنّ على متنه   سبائك من قطع المذهبِ

التنوخي

(١٢) اسم فاعل من شحافاه يشحوه اذا فتحه ، والخوّ والجوّ الوادي والغائط من الارض . ولا معنى له هنا مضافاً الى القتب ، وهو اكاف البعير ، فلعله مصحف عن (جنبا قتب) ، ومثله قول الشاعر :

كأن فاها واللجام شاحيه   جنبا غبيطٍ سلسٍ نواحيه

(لاح) يقال كما مرّ : لاحه العطش لوحاً ولوّحه غيره وأضمره ، وكذلك السفر والبرد والسقم والحزن كما في اللسان ، فالمعنى واضح أي أضمر النجار جنبي القتب وقد شبه بهما اللحيين كما مرّ .

(١) السلهب : من الخيل الطويل وقوله (لاحها طراد المسالح) اي غيرها أو ضمرها والمسالح جمع مسلحة وهي المرقب يكون فيه قوم ذوو سلاح يرقبون العدوّ ، والمعنى واضح .

(٢) الأشق : من الخيل الطويل ، و (يستنّ) ينشط والاستنان النشاط ومنه المثل المذكور : (استنت الفصال حتى القرعى) ، أي ان فرسه نشيط كتيس الفلاة وجؤذر الحلب ، وهو نبات ترعاه الظباء والشاة تسمن عليه فيشتد مرحها ، ومثله قول النابغة يصف فرساً :

يباري النواهضِ صلت الجبيـ   ـنِ يستنّ كالتيس ذي الحلبِ

(٣) تصعلك : الفرس طار وبره ، والحشوة السمن ، والفرد الاشعب : الثور ذو القرنين المتباعدين

(٥) لعل الصواب : القطاة ، وهي مابين الوركين ، وقيل مقعد الرِّدف من الدابة خلف الفارس ، والحارك أعلى الكاهل وقيل فرعه ؛ وطأة المركب ووطاءته سهولته . (٦) الغوط : في الغائط اي المطمئن . (٧) المذهب : اي المموّه بالذهب ، ويقال كميت مذهب للذي تعلو حمرته صفرة .

الغوطة (١)

جزئيات المحاضرة

(١) الغوطة وحدودها (٢) بساتينها وقراها (٣) الأبنية الأزلية فيها (٤) ميزاتها
(٥) سكانها ولسانهم وادياتهم (٦) اثمارها وزروعها (٧) أنهارها وريها
(٨) مدنيتها (٩) صناعاتها الزراعية (١٠) متنزهاتها (١١) أدبها

سبق لي مساء اليوم الخامس والعشرين من شهر شباط الماضي (١٩٤١) أن حدثت المستمعين الى مذياع (راديو) الشرق في بيروت ببعض ما عرفت عن غوطة دمشق ، والآن أريد أن أتوسع في هذا الموضوع اللذيذ المفيد بأطول مما كنت تحدثت ، وأتوخى أن آتيكم بما عرفته من طريق الدرس والتجارب الشخصية .

الغوطة وحدودها

اشتق اسم الغوطة من الغائط ، والغائط المطمئن من الأرض ، والجمع غيطان وأغواط ، وقال ابن الأعرابي : الغوطة مجمع النبات . وورد اسم الغوطة بلفظ التثنية في الشعر القديم والحديث قال ابو المطاع بن حمدان :

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها ... فلي بجنوب الغوطتين شجون
وما ذقت طعم الماء الا استخفني ... الى بردى والنيربين حنين

والنيربان واحدهما النيرب ، وهي قرية كانت على نصف فرسخ من دمشق قال ياقوت : إنها أنزه موضع رآه . وفي مراصد الاطلاع : (إن النيرب قد جاء في الشعر مثنى) فلعل ياقوت فهم منه أن هناك موضعاً آخر وليس كذلك . فان الشاعر قد ثنى الغوطتين وليس إلا غوطة ، كما ثنوا الغيضتين قال ابن منير :

سقاها وروّى من النيربين ... الى الغيضتين وحمورية

(١) محاضرة القاها الاستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي في السادس والثالث عشر من ربيع الآخر سنة ١٣٦٠ « ٢ و ٩ ايار سنة ١٩٤١ » في ردهة المحاضرات .

الى بيت لهيا الى برزة دلاح[1] مكفكفة الأوعية

وللنيرب اليوم يقال أرض النيرب وهي في جوار قرية المِزّة . والغوطتان على ما يظهر هما الغوطة الغربية والغوطه الشرقية . وقال بعضهم الغوطتان الغوطة الشمالية والغوطة الجنوبية أو القبلية .

وقيل انه كان يطلق على الغوطة اسم (البريص) وقد ورد في شعر حسان بن ثابت يمدح بني غسان بقوله :

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلق في الزمان الأول

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية َ المعُم المخْول

يسقون من ورد البريص عليهم بردى ُيصفق بالرحيق السلسل

قال ياقوت : وهذا يدل على أن البريص اسم الغوطة بأجمعها ، ألا تراه نسب الأنهار الى البريص ، وقال يسقون ماء بردى ، وهو نهر دمشق ، من ورد البريص . ورواية البلاذري في فتوح البلدان أن أبا عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد يوم فتح دمشق التقيا بالمقسلاط وهو موضع النحاسين وهو البريص الذي ذكره حسان بن ثابت في شعره حين يقول : يسقون من ورد البريص عليهم .. البيت — لا تعطي العبارة أن البريص هو بردى بل يفهم منها أنه مكان آخر .

لم يحدد القدماء الغوطة ، ولم يعرفوها التعريف المطلوب . فقال المقدسي : إن مساحتها مرحلة في مثلها . وقال القزويني : إن طولها مرحلتان في عرض مرحلة . وقال ياقوت : إن استدارتها ثمانية عشر ميلاً . وقال شيخ الربوة : إنها من حيز دمشق ناحية يكون طولها ثلاثين ميلاً وعرضها خمسة عشر ميلا[2] . وقال ابن

(١)سحابة دلاح كثيرة الماء : ج دُلح (٢) المرحلة مسيرة يوم على الراكب بالسير المعتدل والميل مئة الف اصبع إلا اربعة آلاف اصبع ، او ثلاثة او أربعة آلاف ذراع ، بحسب اختلافهم في الفرسخ هل هو تسعة آلاف بذراع القدماء ، او اثنا عشر الف ذراع بذراع المحدثين . وعرفوا الفرسخ أنه ثلاثة أميال هاشمية أو اثنا عشر الف ذراع أو عشرة آلاف . والذراع أيضاً يختلف باختلاف الأقطار والأعصار .

طولون الصالحي في كتابه (ضرب الحوطة على جميع الغوطة) إن قرية زبدين آخر حدودها ، وهو صحيح ، ولم يذكر حدها من الشرق والغرب . وزعم أن (حران العواميد) من الغوطة وهي من قرى المرج ، وبينها وبين الغوطة أربع ساعات على الراكب ، وهكذا عدَّها ياقوت وهو غير صواب . وذكر البكري في (معجم ما استعجم) ان قرية دمر من الغوطة وعدّ الدوّ من الغوطة وقال انها تلقاء البضيع [1] .

والظاهر أن القدماء قدروا الغوطة على هذه الصورة بحسب ما رآها كل واحد في عصره ، وكانت تتسع وتنقبض تبعاً للكائنات الأرضية والسماوية . وقد قال صديقنا العلامة الأثري دوسو [2] إن الغوطة تطلق على الصقع الذي يُروى حول دمشق بين الجبل والبحيرتين (بُحيرة المرج وبحيرة الهيجانة) حيث تنصب فضلات الأنهار ، وأن الغوطة الآن اذا أُطلقت يراد بها الكورة التي فيها الحدائق والبساتين أي أن المرج غير داخل في الغوطة . وقال بعض القدماء إن الشام الثالثة الغوطة ، ومدينتها العظمى دمشق . وقال مرتين إن الغور الشرقي يكوّن سهل دمشق الذي يمتد من أقبال [3] الجبل الشرقي الى بادية الشام أو بادية تدمر ، فعند تخوم هذه البادية غوطة أريضة من أجلّ ما أحدثت يد الطبيعة تشقها الأنهار

---

(١) كذا البضيع مصغراً ويروى بالفتح في شعر حسان بن ثابت .

أسألت رسم الدار أم لم تسأل   بين الجوابي فالبضيع فحومل

والبصيع بالصاد المهملة وقال إنه جبل بالشام أسود . وجبل البضيع يعني جبل الكسوة المشرف على الغوطة . هذا ماقاله ياقوت . وروي في التاج عن الازهري أنه رأى جبل البصيع وقال انه جبل قصير أسود بأرض البثنية فيما بين تسيل وذات الصنمين بالشام من كورة دمشق . وفي وسط الكسوة جبل يناوح جبل المانع اسمه المضيع (بالميم والضاد والياء المشددة) ولعله هو الاقرب الى الصواب . والبصيع أو البضيع هو ذاك الجبل الذي يقع في أول حوران

(٢) في كتابه طوبوغرافية تاريخية لسورية في الأدوار القديمة وفي القرون الوسطى .

Dussaud : Topographie historique de la Syrie antique et médiévale .

(٣) الأقبال جمع قبل والقبل النشز من الأرض أو رأس كل أكمة وجبل .

الكثيرة ، وتكسوها الخضرة ، ويغشيها النبات الغض الموفور ، عرضها نحو ستين كيلو متراً ، وليس لهذا النجد البهيج من العلو الا ٧٣٠ متراً عن مساواة البحر . وقوله ان عرضها ستون كيلومتراً فيه نظر ، ولعله يريد طولها ولا يمكن أن يكون طولها كذلك إلا إذا تجوزنا وأدخلنا فيها المرج .

ويستنتج من كتب الجغرافيا والتاريخ ودواوين الشعراء وأرباب الرحلات ومصطلح القوم لعهدنا أن الغوطة هي كل ما أحاط بدمشق من قرى شجراء ، وكان من الأرض المطمئنة التي تُروى من نهر بردى ، وما اشتق منه من الجداول والأنهار الصغيرة ، وعلى هذا تحدُّ الغوطة يبدأ غرباً من فُوَّهة وادي الربوة فالمزة فداريا وينتهي بالجنوب بصحنايا والأشرفية وسبينة وسبينات وحوش الريحانية . ومن الشرق بالريحان والشفونية وحوش مباركة وحوش الأشعري وحوش المتبن وحوش خرابو والفضالية والنشابية وبيت نايم ، وينتهي في الشمال بجبلي قاسيون وسنير ، وسنير هو جبل قلمون ، ويسمونه لهذا العهد أيضاً جبل الحلو ، وهو فرع من فروع لبنان الشرقي *Anti-Liban* ويشرف الجبل الأسود على الغوطة من الجنوب ، ومن الشرق أرض المرج ، وهو اقليم متسع تبلغ مساحته ثلاثة أضعاف الغوطة وهو أيضاً في نجد منخفض من الأرض ، وأشجاره قليلة ، وهو خاص بزراعة الحبوب في الشتاء والذرة في الصيف .

ويقدر طول الغوطة بنحو عشرين كيلو متراً وعرضها يختلف بين ١٠ و١٥ كيلو متراً تقريباً . وقد تمت مساحتها في العهد الأخير فبلغت (٤٠٦٠٠) هكتار أي نحو خمسة وستين ألف فدان ، والفدان ستة دونمات وكسر ، والدونم مبذر مدّ من الحنطة ، والفدان ٥٧١٣ متراً مربعاً والدونم ٩١٩ متراً مربعاً . وتدخل مدينة دمشق في هذه المساحة .

بساتين الغوطة وقراها

يقول ابن شداد : إن الغوطة تشتمل على خمسة آلاف بستان وثلاثمائة وخمسة

وأربعين بستاناً وعلى خمسمائة وخمسين كرماً . وقال شيخ الربوة من أهل القرن الثامن إن بساتين دمشق مائة واحد وعشرون الف بستان تسقى بماء واحد . وقال كاتب چلبي من أهل القرن الحادي عشر في كتابه «جهانما» : ان في الغوطة مائة وثلاثين آلف بستان . وقال ابن إياس إنها بساتين كلها . وهذا الوصف الأخير أقرب الى الحقيقة ويصدق عليها في العهد الأخير خاصة ، وذلك بعد أن عرف الغوطيون فائدة الأشجار ، وأخذت ثمراتها تصدر الى القاصية والدانية من البلاد . وفي كل سنة تزيد بساتين دمشق مئات ، ولا يستبعد أن تبطل بعد نصف قرن معظم زراعة الحبوب من الغوطة ويستعاض عنها بالأشجار المثمرة وغير المثمرة .

حدّث أحد الشيوخ أنه كان في طفوليته اذا وقف مع أهله أمام قبة سيدي أُبي ، على مقربة من سور البلد في الجنوب ، يرى قريتي جرمانا والمنيحة من بعيد ، وذلك لأن هذه الحدائق التي نراها اليوم تحجب النظر ان يسرح مئة متر ، كانت خالية من الشجر ، وقد غدت اليوم غابات غبياء ، وأدرك الجيل الذي قبلنا أن قريتي الحديثة وبالا كانتا كقرى المرج ، تزرعان الحبوب والخيار والقنب فقط وأشجارهما قليلة جداً وربما عدتا من المرج وهما اليوم من أكثر قرى الغوطة شجراً مختلفاً أنواعه .

ويقول الظاهري في زبدة كشف الممالك ، وهو من أهل القرن العاشر : وقيل إن في اقليم الغوطة ثلاثمائة قرية ونيفاً وبها مدن صغار وبلدان تشابه المدن . وقوله هذا دليل على أن الغوطة كانت عامرة جداً على عهد المماليك وأصابها الخراب زمن الترك العثمانيين ، ولا سيما في القرنين الأخيرين من حكمهم ، فخرب معظم قراها ، وانضمت أرضها الى القرى المجاورة ، وقلّ سكانها ، واضمحلّ عمرانها ، وما يشاهد من الدِمن والتلال في أرجائها أصدق شاهد على ذلك ، وما كان السبب الأول في خرابها غير توالي الأوبئة والطواعين والزلازل والمجاعات وتتابع غارات البادية على المعمور ، واعتداءات جيش الدولة على المستضعفين . على أن قول الظاهري : انه

كان في الغوطة اكثر من ثلاثمائة قرية لا يخلو من مبالغة ولو ضممنا الى الغوطة المرجين ما بلغت قراها هذا المقدار ٠

وذكر ابن طولون الصالحي في القرن العاشر أن بالغوطة سبعين قرية وبعضها الآن دارس ٠ وقرى الغوطة اليوم ثنتان وأربعون قرية ، وأهمها من حيث وفرة السكان (دومة) حاضرة الغوطة الشمالية و (داريا) حاضرة الغوطة الجنوبية ٠ ويزيد سكان دومة على ثمانية عشر ألفاً وسكان داريا على اثنى عشر ألفاً ، وكل من قريتي (عربيل) و (جوبر) لايقل عن ثمانية آلاف ، وكل من (حرستا) (وكفرسوسية) و (المزّة) لا يقل عن ستة آلاف ٠ أما سائر القرى فيختلف سكانها من بضع عشرات من الأنفس كالحديثة وبالا والاقتريس الى بضع مئات ، ومنها ما يبلغ الألف والألفين أو الثلاثة أو الأربعة كحمورية و كفربطنا وجسرين والمنيحة (المليحة) وجرمانا وصحنايا وسقبا وزملكا ٠

وإليك أسماء قرى الغوطة بأجمعها : دومة ، داريا ، عربيل (عربين) جوبر ، حرستا ، كفرسوسية ، المزّة ، مسرابا ، مديرة ، بيت سوا ، المحمدية ، حمورية ، كفربطنا ، جسرين ، الاقتريس ، حزّة ، زملكا ، عين ثرماء (عين ترما) ، القابون ، برزة ، الحديثة (حديثة الجرش) المنيحة (المليحة) بالا (القديمة والجديدة) زبدين ، البلاط ، الخيارة (خيارة نوفل) ، عقربا ، جرمانا ، دير بجدل ، قبر الست ، سبينة ، سبينات ، حوش الريحانية ، حجيرة ، بيت سحم ، ببيلا ، يلدا ، القدم ، الأشرفية صحنايا ، البويضة ، بلاس ٠ واذا جمعت أيضاً هذه البساتين المحيطة بدمشق مثل بساتين الصالحية والربوة والمزّة وباب السريجة والقنوات والميدان والشاغور والعنابة تألف منها بضع قرى ٠

ومن القرى التي كانت على أبواب دمشق فدخلت فيها عندما توسعت الى ماوراء السور : الصالحية والعقيبة وميدان الحصا والصفوانية ، وتحرف اسم هذه اليوم فيقال لها الصوفانية ، ذكر ياقوت أن الصفوانية من نواحي دمشق خارج باب توماء من

أقليم حرلان ، وان توماء اسم قرية ، واليها ينسب باب توماء ، بالهمزة في آخرها ومنه اسم توماء لا توما . وذكر أيضاً قينية وقال إنها كانت مقابل الباب الصغير وقال (الحميريون) محلة بظاهر دمشق على القنوات وكانت على طريق كفرسوسية ومثلها اللؤلؤة محلة كانت خارج باب الجابية ، و (طَرْمَيس) من قرى دمشق و (الأوزاع) موضع مشهور بربضها سكنه في صدر الاسلام بقايا من قبائل شتى ، واليهم ينسب الامام الأوزاعي دفين بيروت . ومن القرى الداثرة في الغوطة المصبصة كانت شرقي بيت لهيا ، وعالية وعويلية عند القطائع ذكرهما ابن جبير في رحلته بالعين المعجمة (بالغين) وهما موضعان قرب مسجد الأقدام على ميلين من مدينة دمشق . وذكر ابن طولون الصالحي قرية (برنابا) وقال إنها خراب فوق سقبا . وقال ابن القلانسي في ذيل تاريخ دمشق إن أراضي (فذايا) و (حلفبلتا) و (الخامسين) مصاقبة للبلد وهذه الثلاث دثرت وكذلك « راوية » وكان بها قبر أم كلثوم وقبر مدرك بن زياد الفزاري الصحابي . وفذايا في جنوبي مقبرة اليهود . وقد وردت أسماء بعض قرى الغوطة في شعر حسان بن ثابت قبل الاسلام عندما مدح آل جفنة قال :

لمن الدار أقفرت بمعان بين شاطي اليرموك فالصمان
فالقرَيات من بلاسَ فدار يا فسكاء فالقصور الدواني
فنقا (جاسم) فأودية (الصفّ ر) مغنى قبائل وهجان
ذاك مغنى لآل جفنة في الده ر وحقاً تعاقب الأزمان
ثكلت أمهم وقد ثكلتهم يوم حلوا بحارث الجولان

وبلاس وداريا من قرى الغوطة وسكاء بينها وبين دمشق كما يقول ياقوت أربعة أميال في الغوطة ، والصحيح أنها ليست منها وهي موجودة اليوم . وقد أضاف صاحب معجم البلدان الى الغوطة قرى ليست منها مثل دير أبان قال انها قرب قَرَحتا وهذه قرية معروفة تعد مرْجية ، ومثلها عذراء ، والنمرانية ناحية الوادي وذكر

حرلان وتلفياثا وسام والقوينصة والقصرين ، عاداً لها من الغوطة وكل ذلك داثر لعهدنا . ومن قراها (جَدَيا) كانوا يسمونها على عهد ياقوت جدْيا ولا يعرف أين مكانها . ومن القرى ما كان صغيراً منذ قرون فعظم واتسع مثل جسرين كانت بلدة كبيرة فأصبحت اليوم متوسطة ، ومنها ما كان كبيراً فصغر مثل البويضة وزملكا وبلاس وعقربا .

وكان في بعض قرى الغوطة اسماء تبدأ بكفر والكفر القرية بالسريانية ، ولم يبق منها الآن سوى كفرسوسية وكفربطنا . وأسماء بعض القرى سريانية محضة مثل برزة — بيت الأرز . جرمانا — عظمي . جسرين — جسور . حجيرة — عُرج . حرجلة — جراد . حرستا — خشنة . حزة — حُفر . داريا — دُور . زملكا — رواق الملك ومصيفه . سبينة — مبتاعون . سقبا — شيخ . شفونية — أرض للزرع . عربيل — غربال . قابون — عمود . كفربطنا — قرية الجنين . مديرة — طبقات البناء . مسرابا — مشترب . يلدا — ولد . ومن أسمائها ما هو من أصل عربي مثل المنيحة ، المحمدية ، القدم ، عين ترماء ، الحديثة ، الأشرفية ، البويصة ، الخيارة ، البلاط .

ومن قراها ما كان يبدأ بفندق أو قصر أو طيرة أو بيت ، مثل فندق بني عبد المطلب ، وفندق الراهب ، وقصر اللبسان ، وقصر بيت لهيا ، وقصر بني عمر ، وقصر حجاج ظاهر باب الجابية . قال زين الأمناء ابن عباد : بدمشق عدة قرى يقال لكل واحدة منها طيرة بني فلان ، والنسبة اليها طيري . ومثل بيت الآبار كانت كورة من غوطة دمشق فيها عدة قرى في رواية ياقوت . وكانت هي وداعية والحارثية معروفة الى القرن التاسع . وذكر ياقوت أيضاً في الغوطة بيت أرانس وبيت البلاط وبيت سابا وبيت قوفا وبيت لهيا ، وتعدُّ زملكا من اقليم بيت لهيا . وكانت بيت لهيا في عهد القرماني من أهل القرن الحادي عشر خراباً ليس فيها دار ولا آثار ، وداعية كانت قرية بين حمورية وبيت سوا ؛ وكانت كفربطنا من اقليم داعية ، واليها ينسب نهر الداعياني .

وفي الغوطة اليوم أنهر تنسب لإحدى القرى ، دثرت القرية وبقي اسم نهرها ، مثل قناة دير بشر المارة بجوش بلاس ، تنسب الى بشر بن مروان الأموي ، ومثل قناة بيت أرانس ، وكان في بيت أرانس قبر مَرْثد دثار بن الحصين من الصحابة والقناة تمر بأرض الشاغور ولا أثر لبيت أرانس ، ومنها نهر حُردان ، ونهر حردان نسبة لقرية كانت فوق قرية سقبا بقي اسم نهرها الى اليوم فقط ، هكذا يلفظونه · والحرلان كما وصفها علماء تقويم البلدان ناحية بالغوطة فيها عدة قرى وبها قوم من أشراف بني أمية ولعلها حردان بعينها ·

ويؤخذ من منشور صادر عن نور الدين محمود بن زنكي في سنة ٥٦٩ أن حي الميدان والشاغور والمزاز وقبر عاتكة والشويكة والقنوات وسوق صاروجا والعقيبة والعمارة وغيرها من الأحياء الخارجة عن السور كانت في القرن السادس مزارع ومصايف وحدائق ومتنزهات وهي اليوم من أحياء العاصمة · وروى ابن عساكر عن مضر بن العلاء أنه كان يعرف من زقاق فذايا الى قرية تعرف بواسط في الغوطة حوانيت ومنازل · وحكى عن شيوخه أنهم قالوا إن العمران يتصل بهذا حتى يصير سوق القمح في قرحتا (وقرحتا على ساعتين من دمشق) · وقال محمد بن أبي العلاء إنه كان على نهر يزيد رواشن مشرفة عليه ، وكان أكثرها ظاهر البلد منازل للقبائل وقرى متصلة وأسس متقاربة ، فخرب ذلك في الفتن والحروب والحصارات ، وتمادى عليها الخراب الى عهده · وذكر من منازلها القبلية فندق بني عبد المطلب عند سوق الدواب والراهب قبلي المصلى عن يسار المار قبلي المسجد الجديد بعد مسجد فلوس ومحلة السفليين عند المسجد الجديد والشمامسة عند المسجد القديم وعالية وعويلة قبلي مسجد القدم ، والقطائع يقال لها ريح حوران قبلي الشاغور وغير ذلك ، واما ما كان شمالي البلد فسطرا والفراديس والأوزاع والصدف ومقرا وشعبان وحرج الأشعريين وغير ذلك · ومن الغرب لؤلؤة الكبيرة ولؤلؤة الصغيرة وقينية وصنعاء والحميريين ومنازل بني رعين وغير ذلك سوى ما كان في شرقي البلد من

غربي الغوطة والمرج من القصور والدور والمنازل المعروفة والأماكن المذكورة مما عفا رسمه وبقي ذكره . قال وما من موضع يحفر فيه الا وجد فيه أثر العمارة من سائر نواحي البلد من قبليه وشرقيه وشآمه وغربيه ، والله يحرس ما بقي منها ويحميه بمنه ولطفه اه

ومن أماكنها الداثرة الدراجية وهو برج الدراجية على باب توما ، كان لعبد الرحمن ويقال لعبد الله بن دراج مولى معاوية بن أبي سفيان وكاتبه على الرسائل في خلافته . ومنها طرميس والسقي وسام وأرزونا قرية قرب عربيل ، وبيت الأبيات كانت محل طاحون الشنان ، وبيت الأبيات كما في تحقيقات السيد دوسو هي في الغرب تدخل فيها قرية النيرب ، وبيت الآبار قرب جرمانا ومنها بيت سابا . ومن قراها الداثرة يعقوبا قرية صغيرة كانت غربي حزة

بعض عاديات الغوطة وآثارها

أهم عاديات الغوطة أديارها وفي كتب الفتوح أن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه صالح أهلها على خمس عشرة كنيسة كانت في دمشق فنزلوا له عن نصف كنيسة القديس يوحنا أي الجامع الأُموي كان المسلمون أخذوا نصفه يوم دخلوا دمشق . وكان في الغوطة دير يونا « يوحنا » و « دير محمد » كان عمر بن عبد العزيز يراه أهلاً للخلافة ، واليه تنسب المحمديات فوق الأرزة ودير محمد كان عند المنيحة من اقيم بيت الآبار ، و « دير الحنابلة » كان بسفح قاسيون و « دير هند » كان في مقاطعة بيت الآبار و « دير بشر » كان عند حجيرة ينسب الى بشر بن مروان ، و « دير العالية » نزله مروان بن محمد . ومن الأديار الداثرة « دير حنينا » و « دير الماطرون » و « دير قبيس » و « دير سمعان » قال القرماني إنه كان في الغوطة و « دير خالد » ويعرف « بدير صليبا » و « دير زكي » . ومر بهذا الدير عبد الله بن طاهر من اعظم وزراء المأمون ومعه اخ له فشربا فيه وخرجا الى

مصر فمات أخوه بها ، وعاد عبد الله فنزل في ذلك الموضع فذكر أخاه فقال :

أيا سروتي بستان زكي سلمتما وغال ابن أمي نائب الحدثان
أيا سروتي بستان زكي سلمتما ومن لكما أن تسلما بضمان

ومن الأديار « دير البخت » على فرسخين من دمشق ويسمى « دير ميخائيل » كان عبد الملك بن مروان قد ارتبط عنده بختاً وهي جمال الترك فغلب اسم البخت عليها . ومن أديارها المشهورة « دير مران » في سفح جبل قاسيون المطل على دمشق من الغرب ، كان يشرف على مزارع الزعفران من أرض اللوان . وبقي هذا الدير عامراً الى القرن السابع للهجرة ، ولطالما قصده الخلفاء والأمراء والشعراء ، وقيلت فيه القصائد والمقطوعات . ولأبي الفرج عبد الواحد الببغا من شعراء اليتيمة قصيدة قالها فيه لما قصده للتنزه . قال إنه فتح مناظر ذلك البيت الى فضاء ادى اليه محاسن الغوطة ، وحباه بذخائر رياضها من المنظر الجناني ، والنسيم العطري ومما قال :

ويوم كأن الدهر سامحني به فصار اسمه ما بيننا هبة الدهر
جرت فيه أفراس الصبا بارتياحنا الى دير مران المعظم والعمر
بحيث هواء النوطتين معطر الـ نسيم بأنفاس الرياحين والزهر
فمن روضة بالحسن ترفد روضة ومن نهر بالفيض يجري الى نهر
وفي الهيكل المعمور منه انتزعتها وصحبي حلالاً بعد توفية المهر
ونزهت عن غير الدنانير قدرها فما زلت منها أشرب التبر بالتبر

وفي معجم ما استعجم : أن عقبة مُرّان مشرفة على غوطة دمشق تنبت شجراً باسقاً تتخذ منه القنا والرماح وهو المران . ولعل الدير سمي باسم هذه الشجرة . وكان في الغوطة (دير بولس) و (دير بطرس) او فطرس كانا في ظاهر دمشق في نواحي بني حنيفة ، لا يبعد احدهما عن الآخر كثيراً ، وإياهما عنى جرير بقوله :

لما تذكرت بالديرين أرّقني صوت الدجاج وقرع بالنواقيس

فقلت للركب اذ جد الرحيل بنا يا بعد يبرين من باب الفراديس

ويبرين موضع في الأحساء من جزيرة العرب ، وباب الفراديس هو الذي نطلق عليه اليوم باب العمارة احد ابواب دمشق .

قال ابن بطوطة وفي شرقي البلد (دمشق) قرية تعرف ببيت الاهية [1] (لهيا) وكانت فيها كنيسة وهي الآن مسجد جامع بديع مزين بفصوص الرخام الملونة المنظمة بأعجب نظام . ولم تبق لعهدنا قرية تبدأ باسم دير سوى « دير بجدل » وكانت هذه الأديار في الاسلام منازل المسافرين ، ومثوى المتنزهين والمرتاضين ، يقصدها الناس فيجدون فيها صدوراً رحبة ؛ ونُزُلاً طيباً ، وشراباً لذيذاً (راجع مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري وكتاب الديارات للشابشتي ومعجم البلدان لياقوت) .

والغالب ان القرى التي يبدأ اولها بدير كانت اولاً ديراً فقط . ثم توفرت بجانبه الأرض المغروسة والمزروعة ، وكثر القائمون على حراثتها وزرعها ، فأصبح الدير على توالي الأيام قرية برأسها . كما كان الحال في كثير من المدن والقرى في بلاد الغرب خلال العصور الوسطى ، استحال الدير بلداً مع مرور الأيام .

ميزات الغوطة

اجمع من وصفوا الغوطة على توالي القرون انها شجراء ، وان فيها قرى كالمدن ، وان اهلها كأهل الحاضرة بعاداتهم وازيائهم . ولولا الغوطة ما كانت دمشق من اجمل مدن العالم ، ولولا دمشق ما كانت الغوطة إلا صحراء خالية تعيث البادية في ربوعها . وعيث البادية في المعمور من بلاد الشام قديم جداً على ما يظهر ، لنزول العرب بلاداً مجدبة من الجزيرة تقحط أكثر السنين فيضطر أهلها الى الانتجاع ، فلا يرون أمامهم غير بلاد حوران المتاخمة للغوطة ، وإذا لم يجدوا مراعي لمواشيهم في الجولان والجيدور والبثنية والصفا واللجاة يعرجون على الغوطة بالضرورة ، ولذلك أقام الرومان مخافر عظيمة على سِيف البادية لا تزال الى اليوم بعض آثارها

(١) بيت الاهة كانت حاره في دمشق

مائلة ، وولوا عليها رجالاً من بني غسان من متنصرة العرب ليحموها من غارات اهل البادية ، فكان أمراء الغساسنة حماة الغوطة وما اليها من المعمور ، والوسطاء بين قومهم العرب وأصحاب البلاد من الرومان .

ولما جعل بنو أمية من دمشق عاصمة ملكهم العظيم ، كان للغوطة حظ جزيل من عنايتهم ، فنزلها رجال منهم وعمروا فيها القصور ، وأنشأوا المزارع ، وشقوا الجداول ، وعنوا باستثمارها واستنباتها . ولولاهم ما حازت الغوطة هذه الشهرة ، ولولاهم ما كانت دمشق على هذه العظمة ، وما دمشق كما قال العلامة لامنس إلا حسنة من حسنات بني أمية . نعم دمشق مدينة للأمويين لاختيارها عاصمة لهم ، وهم أحسنوا ولا جرم الاختيار ، فهي وغوطتها سواء .

ولابن أبي العجائز كتاب فيمن سكن الغوطة من بني أمية نقل عنه المؤرخون والجغرافيون . قال ابن قيس الرُقيات :

أجارك الله والخليفة بالغو ... طة داراً بها بنو الحكم

المانعو الجار أن يضام فما ... جار دعا فيهم بمهتضم

وقال ايضاً :

أقفرت منهم الفراديس فالغو ... طة ذات القرى وذات الظلال

قالوا لما قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشام رأى الغوطة ونظر إلى المدينة والقصور والبساتين فتلا قوله تعالى : (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين) . ثم أنشد قول النابغة .

هما فتيا دهر يكر عليهما ... نهار وليل يلحقان التواليا

إذا ما هما مرا بحي بغبطة ... اناخا بهم حتى يلاقوا الدواهيا

قال ابن كثير هذا يقتضي بادئ الرأي أنه دخل دمشق وليس كذلك فانه لم يقل أحد انه دخلها .

ويروى ان امير المؤمنين المأمون العباسي اقسم يوماً وقد نظر إلى اشجار

الغوطة ونباتها انهـا خير مغنى على وجه الأرض وقال : عجبت لمن يسكن غيرها كيف ينعم مع هذا المنظر الأنيق الذي لم يخلق مثله .

روى ابن عساكر ان ملوك بني العباس لم يزالوا يخفون إلى دمشق طلباً للصحة وحسن المنظر منهم المأمون فانه اقام بها واجرى اليها قنـاة من نهر منين في سفح جبلها الى معسكره بدير مران وبنى القبة التي في اعلى الجبـل وصيرها مرقباً يوقد في اعلاها النار لكي ينظر إلى ما في عسكره ، فاذا جن عليه الليـل كان ضوؤها إلى ثنية العقاب وإلى جبل الثلج .

ومن اعظم ميزات الغوطة كون ارضها مقسمة بين اهلها تقسيماً طبيعياً في الجملة، فلا ترى فيها زراعات كبيرة إلا نادراً ، وهذه مهما بلغ من سعتها تدار بمثـل العناية التي تدار بها الزراعات الصغيرة . هكذا كانت في معظم ادوار التاريخ الاسلامي ، حتى ان سيف الدولة بن حمدان لمـا طمع ان يضم الغوطة إلى الاملاك السلطانية كاتب اهل دمشق ملكَ مصر فجاء في جيشه وطرد سيف الدولة عن الغوطة وعاصمتها ، وحُرم ابن حمدان ملك دمشق لأنه حاول ان يجعل من الغوطة مزرعة واحدة ملكاً له . وكيف يرضى الغواطنة عن ذلك وهم يعتزون بها وينعمون ويسعدون ويقولون في امثالهم « شبر بإلية الخروف ولا ذراع بذنب الثور » ويقولون « قلّ بتغلّ » أي قليل من الأرض الجيـدة تحسن تعهدها أعود عليك من ارض واسعة بائرة . ومن يملك في الغوطة فدانين أو ثلاثة فهو سعيد مرفه ، ومن مزاياها أن أهلها يجزئهم ما تنبته لهم أرضهم من المواد الاولية ، ولو كان عندهم الحديد والفحم الحجري لما احتاجوا الى شيء في صناعاتهم وزراعاتهم . ومن مزاياها أنها لكثرة أنواع محاصيلها من شجرها وأرضها وبساتينها وحقولها اذا اصابتها آفة سماوية في بعض السنين تستعيض من الأصناف الباقية ما تعيش به سنتها .

سكان الغوطة ولسانهم وأديانهم

دخلت اللغة العربية كورة الغوطة قبل الاسلام بقرون ، لنزول بني غسـان

العرب فيها ولأن تجار العرب ما انقطعوا عن نزول هذه الديار منذ عرف التاريخ. ولما جاء خالد بن الوليد مدداً لجيش الشام من العراق عن طريق البادية غزا بني غسان في الغوطة يوم فِصحهم ، وركز العقاب راية الرسول عليه الصلاة والسلام في الثنية المطلة على الغوطة ، وهي هذا الجبل الهرمي البادي من الشمال للأنظار فسميت الثنية ثنية العقاب .

قال اليعقوبي إن أهل كورة الغوطة غسان وبطون من قيس وبها قوم من ربيعة ، وقال الهمداني في صفة جزيرة العرب : ومن كلب بارض الغوطة عامر ابن الحصين بن عُليم وابن رباب المعقلي . فبعض سكان الغوطة اذاً من أصول عربية ، واكثر من نزلها اول الفتح كانوا من العرب دع من كان فيها من الغساسنة وغيرهم قبل الاسلام . ولذلك كان سكان الغوطة يشتركون في معظم الاحداث التي تحدث في دمشق سياسية كانت أو غير سياسية ، على ما عرف في العرب من النجدة والاريحية ، ويصهر بعض الدمشقيين الى الغوطيين ، ويتزوج بعض الغوطيات من أهل دمشق .

اصبح سكان الغوطة على توالي القرون مسلمين من اهل السنة ، وليس بها لعهدنا سوى بضع مئات من المسيحيين في داريا وعربيل وصحنايا والأشرفية ، وفيها مئات من المسلمين الدروز في جرمانا وصحنايا والاشرفية ، وكان جميع أهل قرية جوبر يهوداً إلى ما بعد القرون الوسطى ، فانتقلوا الى دمشق في زمن لم نعرفه ، ولم يبق لهم فيها إلا كنيس مقدس عندهم يزورونه ويقيمون فيه صلواتهم . ويقول دوسو إنه في عهد الشفاليه دارفيو *Le chevalier d'Arvieux* من اهل القرن الثامن عشر كانت جوبر يسكنها اليهود . وقد استغرب ابن طولون الصالحي ان اهل جرمانا تيامنة ، قال : وهذا عجب من كونه في هذه الغوطة فان اهلها جميعهم من اهل السنة .

ليس للغوطة احصاء يركن اليه ولا يقل اهلها عن مئة الف انسان على اقل تقدير . وقد نموا في العهد الاخير نمواً هائلاً لقلة الأوبئة ، وانقطاع الحروب منذ زهاء خمس وعشرين سنة ، وما اظنها كانت قبل خمسين عاماً اكثر من عشرين الفاً ، وكان اهلها الى اواخر القرن الماضي يبتاعون العبيد ليعملوا معهم في الارض وذلك لقلة اليد العاملة في ذاك العهد .

ويقل جداً من هاجر إلى اميركا وغيرها من اهل الغوطة ، على نحو ما يكون من سكان الجبال المجاورة الذين غادروا مساقط رؤوسهم بالالوف . وندر من يرتحل عن أرضه من الغواطنة ، مهما ضاقت به سبل العيش ، اللهم إلا للتجارة موقتاً . وما عهد أن مات أحد جوعاً في الغوطة . ويروى أن عيسى بن مريم عليهما السلام قال وقد أشرف على الغوطة : يا غوطة إن عجز الغني أن يجمع منك كنزاً ، لم يعجز المسكين أن يشبع منك خبزاً .

قلت مرة في وصف الغوطة وأهلها : سلام على سكونك في الليالي الظلماء والقمراء ، ربيعاً كان أو صيفاً او خريفاً أو شتاء ، وهنيئاً لمن يستمتعون بالنظر إليك من الصباح الى المساء ، ويتعهدونك بالحرث والكرث والتنقية والزرع والارواء ، سواء عندهم حمارّة القيظ وصبارّة القر ، وظلمة الليل وشمس النهار ، سلام عليهم إنهم مثال النشاط في المزارعين ، لا يضنون على أرضهم باوقاتهم وأتعابهم ، وهي تجودهم ضروب الخيرات كما جودوا زراعتها ، وتزيدهم بركات على بركات كلما رعوها فأحسنوا رعايتها ، وهم مهما صهرت جسومهم حرارتها ، وصفرت سحناتهم رطوبتها ، بيض الوجوه شم الأنوف ، لأن رزقهم مناط أيديهم العاملة ، لا يعتمدون في تحصيل قوتهم على غير قوتهم ، ولا يتكلون على غير من ينزل الغيث وينمي الزرع ويدرّ الضرع . في هذا الريف العجيب تقرأ سور العدل الإلهي في تقسيم الأرزاق ، فلا فقر مدقع ، ولا غنى مفرط . بل هناك تتمثل اشتراكية الاسلام والفطرة ، يعيش القائمون على تعهده عيشاً متشابهاً ،

ويغتني افراد منهم بذكائهم واقتصادهم ، فلا ترى في فقرائهم سلاطة الجياع ارباب النهم ، ولا في اغنيائهم قسوة قلوب اهل الرفاهية والنعم ٠

ثمارها وزروعها

يجود في كورة الغوطـة معظم الثمار والحبوب والبقول التي تجود في الأقاليم المعتدلة ، ولا يجود فيها الليمون والبرتقال ، ولا النخيل والموز للجليد الذي يحدث فيها بعض ايام الشتاء ٠ فتنزل درجة الحرارة إلى خمس واحياناً إلى عشر درجات واكثر تحت الصفر ، وقد اشتهرت داريا بعنبها الزيني ويقل نظيره في انواع العنب الجيد ولطالما نقلت جفنات كرومها وزرعت في كروم بعيدة فما اتى عنبها كالعنب الذي يكون من كروم داريا واشتهرت به ، وعرفت دومة بعنبها الاحمر ، ويجود الزيتون على انواعه اجمالاً في القرى التي تكثر في ارضها الحصباء ، وليست ذات تربة طينية لزجة ، كبرزة والقابون وحرستا ودومة والمزة و كفرسوسية وبلدا وببيلا وحوش الريحانية وغيرها ٠

وفي الغوطة الوسطى يجود القنب ، ولا مثيل له فيما يزرع منه في بعض قرى حلب وغيرهـا ٠ يجود في أرض المحمدية وحمورية والاقتريس وجسرين وسقبا وكفربطنا وزبدين والبلاط والحديثة والمنيحة وجرمانا وعقربا ، اي في القرى التي تسقى من نهري المنيحي والداعياني اللذين يحملان أوساخ دمشق ، كما أنه يجود في بعض الحدائق كأرض الشـاغور والبساتين الواقعة حفافي هذين النهرين ، ومحصول القنب في القرى التي تتوفر على زراعته يزيد على نصف محصولها السنوي من سائر أصناف الحبوب والثمار ، وزراعته صناعة عظيمة كالكرمة في داريا ودومة ٠ وتستأثر سقبا وحدها بأكثر من نصف المحصول تستخرج أعواده واليافه ٠

ولكل قرية او بضع قرى في الغوطـة خاصة لا يشاركها فيهـا سواها ٠ فقد اشتهرت بساتين الضاحية وقريتا كفرسوسية والقـابون بالبقول والخضراوات

لا يجاريها مجار في هذه السبيل من جميع القرى ، يساعدها على هذا التفرد كثرة المياه فيها وقربها من الحاضرة ، واشتهرت جسرين ببزر الفصة وبزر الخيار ، وعرفت حرستا وما اليها بالبيقية والاينسون والسمسم ، وعربيل بلوزها ، وزملكا بكمثراها ، ودومة ببطيخها الاصفر ، ويلدا وببيلا والقدم بِقشدَتها .

واكثر ما في الغوطة من الاشجار المغلة المشمش على أنواعه ، ويكاد يكون مشمش الغوطة منقطع النظير ويفوق بمائيته ونكهته مشمش كلفورنيا المشهور كما روى العارفون . واستخراج عصير المشمش ذي البزرة المرة المسمى بالكلابي — من الفارسية كل آبي ، ومعناه ماء الورد — فن عظيم يحسنه أهله المتمرنون عليه . أما المشمش البلدي والحموي وغيرهما من الأنواع ذي البزرة الحلوة فشيء لا تشبهه إلا فاكهة الجنة .

وهناك الجوز واللوز والتفاح والكمثرى «الانجاص» والخوخ والجانرك والآس والصبار والدراق والتوت الشامي والتين والسفرجل والزعرور وغيرها من الفواكه التي هي مضرب الأمثال بطعمها ونكهتها وحجمها ، وكان يكثر في الغوطة الزعفران والكراز والوشنة والكستانة (الشاهبلوط) والبندق والمشمولة والقراصيا والاجلجق (قزلجق) فبطل غرس الكستانة والبندق وقل القزلجق والوشنة والمشمولة وفقد الزعفران بالمرة كما نسيت زراعة القطن وزراعة التوت لتربية دود القز . وكان لدود القز في القرن العاشر محلات بين عدة أنهر قرب ضريح الشيخ رسلان تهرع الناس اليها في أيام حل جوز القز حتى يصير حريراً للفرجة عليه .

ومن أعظم موارد الغوطة الحور (الرومي والفارسي) والصفصاف ومن محاسنها الحيلان يشبه الصفصاف تصبغ في أوائل الربيع جميع أغصانه بالأحمر كقضبان المرجان ويلحق به شجر الأزادرخت (الزنزلخت) وله زهر طيب الرائحة ويزرعونه على جانبي الطرق العامة والجادات ، وكان يكثر فيها شجر السرو ولا تخلو دمشق وأرباضها من

أشجاره وكثرته إلى اليوم في أرض الصالحية ، وكان الى القرن الماضي وافراً في أرض الغوطة وما كان يخلو كل بيت في دمشق وغوطتها من شجرة أو شجرات منه. ومن الاشجار الحديثة فيها الاوكاليبتوس او الكينا والسنط (الاكاسيا) والمشمش الهندي وبعض أصناف صارت بالتفنن بالتطعيم مثل المشمش الحلو ، ومنها الكراز. ومن البقول البطاطا والبندورة . ويحاول بعض الغوطيين أن يربوا شجر الشوح وما أظنه يجود في اقليمنا ، كما يجود في رومانيا من بلاد حوض البحر الأسود ، ولكل كورة خصائصها الجوية والأرضية تعمل في النبات والحيوان .

أنهارها وريها

تبدلت معالم الغوطة كما قلنا غير مرة كأن الأرض الخصبة تحتاج أبداً إلى من يثيرها ويجددها ويسمدها ، فإذا كثرت فيها الصروح والقصور والمصانع المتينة تجمد أرضها وتضيع مزيتها ، لذلك كانت أرض الغوطة أبداً في تجدد ، ومعها تتجدد المرافق والمعالم والأوضاع . وليس في صحيفة هذا الوجود ما يثبت على الدهر ، ولم يتبدل في الغوطة ماؤها ولا هواؤها ولا تربتها . فالغوطة تسقى من سبعة أنهار أو جداول كبيرة مشتقة من نهر بردى ، ولكم أن تقولوا ان الغوطة هبة بردى كما أن مصر هبة النيل . وبردى هذا يشتق منه الداراني والمزي والقنوات وبانياس وثورا ونهر يزيد ، وهذا النهر حفره أمير المؤمنين يزيد ابن معاوية فنسب إليه ، وقيل حفره يزيد بن أبي سفيان عم يزيد بن معاوية . وما يدخل مدينة دمشق من هذه الأنهار يحمل قاذوراتها فتكون سماداً يوزع في ارضها كلما اراد الغوطي ارواءها . وهذا من جملة العوامل في خصب الغوطة وامراعها ، يضاف الى تربتها الغنية وجوّها المعتدل . وقد تحفر في بعض الاماكن اربعة او خمسة امتار ، ولا تصل إلى طبقة الحصباء والحجر ، لكثافة الطمي او المادة الصالحة للزرع .

هـذا أهم ما يسقي الغوطة من الأنهار ، ومن ارضها تنبع عدة قني تسقي مزارعها واراضيها وما وراءهـا من ارض المرج مثل عيون فاسريا تنبع من سفح الجبل شمالي دومة وتكون حارة ثم تبرد . وهذه العيون تسقي قرية عذراء في المرج ، وكذلك عيون قلايا في ارض المحمدية تسقي ما انخفض من الارضين هناك وربما كان اسم قلايا وفاسريا اسم القريتين اللتين يجريان إليهما . ومثل نهري الزابون والملك ينبعان من بردى او من عين قريبة من مجراه ويسقيان بعض اراضي جسرين والمحمدية والافتريس ومثل نهري الشيلاني (الشيداني) والبيلاني (البالاني) يسقيان الحديثة وزبدين وبالا وهما مما ينبع من قرارة بردى ويتجمع من مصاصات المياه المجاورة . ومن القرى ما لا تصل إليه مياه بردى كبعض ارض داريا وارض صحنايا والأشرفية وحوش الريحانية وبلاس وسبينة وسبينات وحجيرة والبويضة وقبر الست وبرزة فانها كلها تسق من قنى خاصة بها ، أو من جدول قريب كبرزة تسقى من نهر معربا أول جبل قلمون او سنير ، او من عيون هي في حقيقتهـا رشح من ماء بردى كعين حروش في أرض زبدين . ومياه هـذه العيون كمياه الأنهار منظمة بنظام دقيق بحيث تأخذ كل أرض حقها وتوزع على أرباب الحقوق توزيعاً عادلاً ، ولهم فيها مصطلحات يصعب على غير أهل القرى أن يتفهموها بسرعة . وليس في حقول الغوطة ما تعيش زراعاته الصيفية عذياً أي من المطر كزراعات الجبال . واكثر أهل الغوطة تمتعاً بالمياه أرباب البساتين المحيطة بالعاصمة ، يسقون عندما يريدون من مواصيهم ، وتكاليفهم من الجباية اقل من تكاليف أهل القرى .

يتبع

نظرة في الكلام المجازي

عندنا وعند الافرنج

مما هو ثابت بالحس والمشاهدة فلا يحتاج الى جدال وبرهان اننا في نهضتنا العلمية الحاضرة ينبغي لنا ان نضيف الى ما عندنا والى ما ورثناه عن سلفنا الصالح كنوز نفائس وفوائد تتمتع بها الامم الافرنجية في عصرهم الذهبي الحالي ، ولا غبن عليهم ولا عار علينا ان يعيرونا جانباً واسعاً من ذلك كما أعارهم اجدادنا قناطير مقنطرة خلال عصورهم الذهبية التي لا تقل عن سبعة او ثمانية قرون ابتداؤها بوجه التقريب في المئة الثالثة للهجرة . ومن ثم وجب علينا ان نعنى عناية خاصة بفن التعريب اي حسن النقل عن اللغات الاعجمية بحيث لا نضيع شيئاً من معاني الاصل المنقول عنه . ولا نشوه شيئاً من محاسن الفرع اي محاسن اللسان العربي المنقول اليه بل نحفظ له قوالبه المعهودة له ونصون طابعه الاجمالي في كل قطعة وكل بحث ولا ندخل عليه من مفردات ومركبات الاعاجم الا قدراً يسيراً يقارب ما عهدناه في لساننا ، اولا نراه بعيداً عنه في القياس فلا يتأذى صميم لغتنا ولا يتنكر وجه ادبنا بهذا القدر اليسير . وهذه شروط لا نجد الا فئة صغيرة من فحول كتابنا وادبائنا يلتفتون اليها ويعملون بمقتضاها . واما سائر حملة الاقلام بيننا فهم في هذه السبيل إما قاصرون ، وإما مقصرون ، وإما مقصِّرون عنه توانياً وكسلاً حتى دب دبيب الخلل والفساد الى الانشاء العربي الناصع من حيث نشعر ولا نشعر ، والى ناحية كبيرة من نواحي كرامتنا القومية وواجباتنا الوطنية . وهنا هنا موضع الخزي والخذلان ، والضرر والخطر .

وقد وضعت لهذا المطلب السامي الشأن كتاباً منذ بضع سنوات سميته « كتاب فن التعريب عن اللغة الفرنسوية » والاحكام والفروق التي تنطبق على لغة الفرنسيس

عند التعريب عنها ، يتناول اكثرها غيرها من لغات غربي اوربا كالايطالية والاسبانية والانكليزية والالمانية والرومانية ، فجميعها اخوات او بنات اعمام متحدرات من اصول لاتينية او يونانية قديمة . واما مقالي الحاضر فأريد ان التفت فيه لفتة خاصة الى الكلام المجازي عندنا وعند الافرنج ، فان نقل الكلام المجازي الاجنبي الى لساننا عقبة كؤود يجب ان تتضافر الاذهان والاقلام على تذليلها وتمهيد طريقها ، فاذا وفقنا لذلك واتفقت عليه كلمتنا زالت من امامنا اعظم مصاعب التعريب وعوائقه . والذي ذكرته من هذا القبيل في كتابي «فن التعريب» هو جل ما وصل اليه فهمي واجتهادي وانطبق على ذوقي ، ولعله لا يخلو من فائدة ومعونة ، ولكنه غير كاف لأنه لا يشتمل على حكم جامع مانع . فهذا الحكم الخطير ليس من الحق ان يصدره كاتب واحد ولا من الصواب ان يطالب به كاتب واحد ، وانما يتعاون عليه ويتشارك فيه جماعة من خدّام اللغة العربية والادب العربي . وها انا جئت افتح الباب في وجه هؤلاء الاخوان فعساهم بعد ذلك ان يدلوا ابناء الامة على غرف الدار ومسالكها ومستشرفاتها ومرافقها .

متى يجوز لنا ان ننقل الى لساننا الكلام المجازي الافرنجي حسب ظاهر لفظه واسلوبه ؟ ومتى يجب علينا ان نضرب صفحاً عن لفظه واسلوبه ونقتصر على تأدية معناه حسب قوالب لغتنا ؟

اما الذي اتبينه أنا من هذين الشقين فهو كما يأتي :

ان الكلام المجازي الافرنجي يحسن نقله الى العربية حسب ظاهر لفظه واسلوبه في هذه الحالة :

اذا كانت الصورة المجازية مسموعة شائعة في لساننا نحو : «عقدَ حديثاً *Lier une conversation*» — ضرب العدو معقلا . *Battre une place* اي اطلق عليه نيران المدافع . — «راية منصورة *Un drapeau victorieux* اي

اصحابها منصورون - « عقل ناضج *Un esprit mûr* » اي كامل بالتجارب — « صقل عبارة *Polir une expression* » اي هذبها — « صارع الشقاء *Lutter contre la misère* » اي قاومه — « ابناء الظلمات *les enfants des ténèbres* » اي ابناء الضلالة — « ثقل الصولجان *le poids du sceptre* اي مصاعب الملك — « ميناء النجـاة *le port du salut* » اي المنجى — « عقل مخصب *Uu esprit fécond* » اي عقل متسع قادر ٠

ويدخل في هذا السلك كل ما كان وارداً على طريق مجاز مشاع ، تشبيهاً كان او استعارة او كناية فهو غير محسوب من خصائص اللسان العربي ولا من خصائص اللغات الافرنجية كوصف بعض شعراء الافرنج الشعر المسدول بالتموج وتشبيههم الغدير الصافي بالمرآة ، ولحاظ الحسان بالاشعة ٠ وكقول احد ادبائهم مشيراً الى مساوئ طور الشباب وقلة خيره : « ليس ما يدعونه ايام الصبى الا وميض برق في ليل عاصف » وكقوله في وصف معيشة قروي : « وكان بين امرأته واولاده كالشجرة الناضرة كللها ثمرها الناضج » وفي كرور الايام المستمر : « الزمان بحر دائم الجريان لا ساحل له والمرء فوقه يتخبط على غير هدى ولا يصيب مرفأ يرمي فيه » وفي ذكر امّ تتأمل صغيرها : « كانت تنظر بحنو الى طفلها وما هو الا وعاء ستملأه حادثات الليالي » وفي شقاء الرعية لرفاهية ملوكها : « لم ينسج ارجوان الملوك الا من دماء رجالهم » ٠

ولكني لا استحسن مثلاً ان نقول في التعبير المجازي كما يقول الافرنج « دموع مرة » عوض « دموع حارة » ولا « احترام عميق » عوض « احترام عظيم » وغابات نائمة » عوض « غابات هادئة او ساكنة » ولا « جبهة هادئة متكبرة » عوض « عليها سمات الهدوء » ولا « مدّ اليه يداً مستحية « عوض » مد اليه يد الحياء ٠ او — مد اليه يده بحياء ٠ او ٠ مدّ اليه يده مستحياً » ولا « طلب يد فلانة » اي خطبها الى اهلها » ولا « الزمان الذي يتبخر » اي الزمان المشرف على الزوال ٠

فهل يمكن وضع حدود ورسوم لهذا المرفوض وذاك المقبول من المجاز الافرنجي ٠ وكيفما افضى بنا البحث والاستقراء فلا شك انه يجب رفض الصورة المجازية الافرنجية اذا كانت من خصائص انشائهم وهي غير معهودة في انشائنا ٠ واذا كانت عندهم دالة على اصطلاح خصوصي او عادة في معايشهم او فيها تلميح الى حديث او حادث في تاريخهم ٠ ويكثر ذلك في الامثال والكلمات المأثورة القريبة من مجرى المثل ٠ فلا بد لنا حينئذ من كشف المراد عنها وقد يتفق ان يكون لمؤداها صورة مجازية اخرى عندنا فنذكر المجاز العربي ونترك المجاز الافرنجي وان افضيا الى معنى واحد ٠ فعوض ان نقول مثلا « ألقى آخر ورقة لعب من يده » او « اطلق آخر خرطوشة من بندقيته » يجدر بنا ان نقول : « رمى بآخر سهم من كنانته » وعوض ان نقول « عمل ملفوفة بيضاء » يجب ان نقول : فاته غرضه اوخاب مسعاه او طاش سهمه او خبا زنده

ومن هذا الشق المرفوض استعمال بعض الأدوات عندهم لمعان وحالات لا تنطبق على ما يراد منها في لغتنا ٠ فلفظة *Comme* ومعناها « مثل » تأتي عندهم بهذا المعنى وبمعنى « بما ان » وقد يستعملونها في مواضع نرى وجوب حذفها منها في العربية نحو قولهم *je le considérais comme innocent* وهذا تعريبها الصحيح : « كنت اعده ٠ او ٠ كنت اعتبره بريئاً » لا « مثل بريء ٠ او نظير بريء » حسب النص الفرنسوي ،وترد *Comme* في الفرنسوية للتعجب نحو *Comme il est beau !* اي « ما اجمله » ٠

« *Rien qu' à* » : يرادفها في العربية « بمجرد » في مثال قولنا : « *Rien qu'à le voir, on le soupçonne* » اي : بمجرد النظر اليه تقع التهمة عليه

« *une fois que..* » : نحو *Cela, doit être vrai une fois que vous mele dites* اي « بما انك قلت لي ذلك ينبغي ان يكون صحيحاً »

(*c'est*) : لا يجوز أن ننقلها بحرفها الى لغتنا فنقول « هذا » او «هذا هو » فهذه الأداة عندهم يستعملونها لاداء معنى الحصر والتوكيد . فيجب ان نقيم مقامها ما عرفناه من وسائل الحصر والتوكيد مثل استعمال « ما والا » او ما يرادفهما في النفي والاستثناء . او استعمال « انما » او تقديم اللفظ المراد حصره . او استعمال شيء من اللفظ المؤكد . فاذا قالوا مثلاً *C'est une bonne intention qui lui a dicté cette démarche* لا يجوز لنا ان ننقلها حرفياً ونقول : « هذه هي نية صالحة املت عليه هذا المسعى » فهذا التركيب في منتهى الركاكة والخطإ بل يجب ان نقول « ما املى عليه هذا المسعى الا نيته الصالحة » او « انما دعاه الى مسعاه صفاء النية او حسن القصد » او « حسن القصد وحده دفعه الى مسعاه » او نحو ذلك

(*trop*) هذه الاداة عندهم تدل على تجاوز الحد في الأمر فاذا قالوا : « *Il est trop sage pour commettre cette faute* » فمن المضحك ان ننقل اللفظ بنصه الى لساننا ونقول : « انه عاقل كثيرا لارتكاب هذه الغلطة » بل ينبغي ان نقول « انه اعقل من ان يرتكب هذا الخطأ » .

ان الاداتين الفرنسويتين *si* و *autant* يرادفها في العربية « بهذا المقدار» ولكن في كثير من استعمالها نرى ترجمتها بهذا اللفظ سمجاً ركيكاً . مثال ذلك قولهم : « *Il est si (tant ou autant) vertueux qu'il aime ses ennemis* » فلا تنقلها بحرفها الى العربية وتقل : انه بهذا المقدار فاضل حتى يحب اعداءه » بل قل : « قد بلغ من فضله — او فضيلته — انه يحب اعداءه » او « ان فضيلته تقضي عليه حتى بمحبة اعدائه » او نحو ذلك .

ومن هذا القبيل « *pour* » فلا يرادفها في العربية دائماً لام التعليل او « لكي » او « لاجل » . بل ذلك غالب في استعمالها لا مطرد اذ تقع في بعض استعمالاتها الفرنسوية موقع « عوضاً عن » او « عن » بمعنى عوض . او « بدلاً من » . نحو :

« *embrassez pour moi vos enfants* » فلا تقل في تعريبها « قبل لأجلي أولادك » بل قل « قبل عني اولادك » او — عوضاً عني — او — بدلاً مني — او — نب عني بتقبيلهم · ثم ان هذه الاداة الفرنسوية نفسها *pour* يجب حذفها عند التعريب في بعض استعمالها · مثال ذلك : *je compte ces fatigues pous rien* فيجب تعريبها هكذا : « لا أعد هذه الاتعاب شيئاً » او — شيئاً مذكوراً — او : شيئاً يستحق الذكر

ولهم أفعال تخالف في بعض مواقعها عندهم ما عرفناه من مواقع مرادفاتها عندنا · اكتفي هنا على سبيل التمثيل بايراد اربعة منها « *faire. avoir. venir. aller* »

« *faire* » هذا الفعل الذي يرادفه بالعربية في اكثر استعماله « فعلَ او عملَ اوصنعَ » قد يرد بالفرنسوية في تعابير لا يليق بنا عند تعريبها استعمال المرادف المذكور مثال ذلك ان يقال في الفرنسوية « *il a fait des efforts* » فلا تنقله حرفياً وتقل « عمل مجهودات » بل قل « بذل جهداً » · وان يقال *il a fait ses devoirs* فلا تقل في تعريبه « عمل واجباته » بل « قضى واجباته — او — اداها — او — قام بها — او قام بما عليه · الخ »

ويقولون « *il a fait malade* » ونحن نقول : « اظهر المرض — او ادّعاه — او تمارض »

« *avoir* » هو فعل الحصول عند الفرنسويين فاذا ألحق به حرف الجرّ الى هكذا : « *avoir à* » وبعد حرف الجر فعل آخر وجب ان يحل محله في العربية الفصحى اللام او على ملحقتين بالضمير او الاسم الظاهر الذي يريده المتكلم · وربما اقتضى اتساق الانشاء العربي ان يتقدم على ذلك فعل كان او وجب او ترتب نحو « *vous aurez à faire un long trajet* » وتعريبه هكذا : « سيكون عليك — او سيترتب عليك او سيجب عليك — قطع مسافة طويلة · ونحو : *Vous* »

« *n,aurez qu à lui attirer son attention* » وهذا تعريبه : « ليس لك الا ان توجه انتباهه — او ان تنبهه » ٠

« *aller; venir* » يستعمل فعل المجيء في الفرنسوية احيـاناً للدلالة على الماضي القريب ٠ وفعل الذهاب للدلالة على المستقبل القريب ٠ فاذا قالوا : يجيء من فعل كذا : « *il vient de faire* » ارادوا انه فعله منـذ هنيهة ٠ واذا قالوا « يذهب لفعل كذا » *il va faire telle chose* ارادوا انه سيفعله عما قريب ٠ او انه على اهبة القيام به ٠ كما اشتهر انهم يستعملون فعل الذهاب للسؤالـــ عن الاحوال فيقولون : « كيف انت ذاهب » اي كيف احوالك ٠ ويقولون « كيف ذاهبـة الأشغال » اي كيف هي ٠

وكثيراً ما يستعملون صيغة الحاضر في تصريف الافعال عوض صيغة الماضي عند تخبيرهم بالحوادث لأنهم يرون هذا الاستعمال ادعى الى حسن تصوير الأمر للقارئ وترسيخه في ذهنه ٠ مثال ذلك قولهم : « *L'orateur se lève , attire l'attention et captive les esprits* » اي « ينهض الخطيب فيسترعي انتباه القوم ويختلب عقولهم » يأتون بمثل هذا التعبير والحكاية فيه عن امر واقع ٠ واما الكاتب العربي فلا يجوز له الا مراعاة زمن الحادث مستعملاً صيغة الماضي بحيث يقولـــ : « نهض الخطيب فاسترعى انتباه القوم واختلب عقولهم ٠

ومما يجدر بنا ذكره مناسبةً لما نحن فيه ان البلاغة العربية يدخل في ابوابهـا وطرق انشائها عكس ما ذكرناه هنـا من مصطلحات الانشاء الفرنسوي ٠ فالبليغ العربي لا يعرف اقامة المضارع مقام الماضي ولكنه يعرف اقامة الماضي مقام المضارع حين يريد الاشارة الى ان وقوعه امر محتوم لا ريب فيه ٠ وشاهد ذلك ما جاء في القرآن الكريم عند ذكر ساعة الدينونة : « وفتحت السماء فكانت ابواباً »والمراد : « وستفتح السماء فتكون ابواباً » وانما اختار صيغة الماضي لاشعار السامع ان ذلك الحادث المستقبل منتظر لا مجال للشك فيه كما لا يشك في امر وقع واتصل بنا خبر

وقوعه . وهذا الاستعمال عندنا داخل في باب مخالفة مقتضى الظاهر من فن المعاني . وهو نهج معروف في العربية العامية ايضاً . مثال ذلك ان جاركم يقول لك « ان ولدي من تلاميذ الصف الاول في مدرسته وعلاماته في الدروس وحسن السلوك من اول السنة الى اليوم احسن من علامات رفاقه كلهم وهو هذه الأيام قد ضاعف انتباهه واجتهاده ومراجعاته استعداداً لامتحان آخر السنة » فتجيبه « اذن ابنك نجح واخذ جائزة الشرف الاولى من مدرسته » وانت تريد ان تقول له « ان ابنك سينجح وسيأخذ جائزة الشرف الأولى من مدرسته » . لأنه في ساعة تحادثك انت وجارك لم يكن امتحان آخر السنة قد حان ووزعت جوائزه على مستحقيها .

ومما يجب علينا الانتباه اليه وحسن تدبره كيفية نقل المجاز الافرنجي في طريق الاساطير الخرافية المأخوذة عن قدماء اليونان والرومان ولا سيما عند ذكر الارباب الوثنيين ورباتهم وانصاف آلهتهم وابطالهم ولكل منها دلالة على اعلى قمة من الصفات المختلفة كالحكمة وقوة البأس والدهاء والذكاء والجمال والغرام والحقد والانتقام وغير ذلك .

واما الخصائص في بعض المفردات والمركبات فهي عندهم كثيرة جداً يخطئها العد والاحصاء ولكن لا بد لنا من ايراد اليسير منها على سبيل التمثيل ووجوب الانتباه اليها واتخاذ الحيطة لها :

Il a mis deux heures معناه الأصلي : وضع ساعتين . والفصيح أن يقال : قضى ساعتين . او استغرق ساعتين

Etude معناه الأصلي درْس . ويأتي بمعنى بحث . مبحث مباحثة .

Etudier une question الفرنسي يقول : درس فلان المسألة . والعربي يقول : فحصها وتفحصها نظر فيها او امعن فيها نظره او انعم نظره دقق فيها واعمل فيها فكره

sang froid معناه حرفياً : دم بارد . ويجب تعريبه بقولنا رباطة

الجأش اوثبات القلب او ثبات الجنان · او حضور الذهن

Il a sauvé les apparences معناه حرفياً : انقذ الظواهر اوخلصها : و ترجمته داری ظاهر الأمر او رعى حق الظواهر · او صان حرمتها

Créer خلق · وكثيراً ما يجب تعريبه بفعل اختلق او ابتكر او ابتدع او انشأ

Il était étroitem ent compromis ترجمته الفصيحة ، كانت التهمة موجهة اليه كل التوجيه او اشدالتوجيه · أو كانت الشبهة العظمى واقعة عليه

Il décrit avec bonheur يحسن الوصف · يصف بدقة · او مهارة او لباقة · انه موفق في دقة وصفه كذا

Cette influence explique son indécision الترجمة الحرفية ذلك التأثير كان سبباً لتردده · نشأ او نجم تردده عن ذلك التأثير

وهذا القدر اراه الآن كافياً لأجل فتح الباب لغيري والتطلع الى ما وراءه من زوايا وخبايا

اللاذقية **ادوار مرقص**

مخطوطات ومطبوعات

الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب

من جملة مخطوطات المكتبة الأحمدية بحلب (الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب) للعلامة ابن خطيب الناصرية في مجلدين ضخمين الثاني منهما مخروم الآخر. كان هذا الكتاب معاراً من مدة طويلة ومنذ نحو ثمان سنين استحصل على الجزء الاول ومنذ شهرين استحصل على الثاني ، ولما وصل هذا الى دائرة الاوقاف ارسلته إليّ لارتبه لأنه قد اختلط بعضه ببعض ولا ارقام على صفحاته ، فرتبته ووضعت له أرقاماً وحصرت نقصه من نصفه الى الآخر فبلغ عشر ورقات ، وقد أحببت ان اكتب كلمة عن هذا السفر النفيس معرفاً به لعل ذلك يؤدي الى اخراجه الى عالم المطبوعات لتعم الفائدة منه .

هذا التاريخ كما قال مؤلفه القاضي علاء الدين علي بن خطيب الناصرية في خطبته هو ذيل على تاريخ الكمال عمر بن أحمد ابن العديم المسمى (بغية الطلب في تاريخ حلب) الذي تكلمت عليه وعلى الاجزاء الموجودة منه في مكاتب العالم وعلى ترجمة صاحبه في مجلة الجامعة الاسلامية الحلبية في تسعة اعداد وذلك من عهد قريب .

وتاريخ الكمال ابن العديم ينتهي الى سنة ٦٥٨ الى السنة التي استولى فيها هولاكو على حلب وخربها ، فجاء ابن الخطيب فذيله من سنة ٦٥٨ الى سنة وفاته التي كانت سنة ٨٤٣ قال :

احببت أن اذيل عليه ذيلاً مختصراً وقبل الخوض في ذكر الاسماء اصدره بفصول:

الفصل الأول في حلب وأسمائها ومن بناها والقابها

〃 الثاني في ذكر حدودها وأعمالها

الفصل الثالث في عظم فضلها وخصائصها

〃 الرابع في فتحها

〃 الخامس في نهرها وقناتها ومساجدها ومعابدها

وقد ذكر ذلك الصاحب كمال الدين عمر بن العديم في ذيله مستوفى ، الا ان تاريخه تفرق شذر مذر ولا يوجد الا القليل منه ، وكنت وقفت على بعض اجزاء منه من المبيضة قبل الفتنة التيمرية ثم أذكر منها أو من بلادها ومن اجتاز بها من الرواة والعلماء والفضلاء والرؤساء ، ومن كان بها من الصالحين والعباد ومن نزلها او اجتاز بها او بمعاملاتها من أهل الشعر والانشاء ومن دخلها أو ملكها من السلاطين او وليها من الامراء والنواب والقضاة ومن وفد اليها والى معاملاتها من فضلاء غيرها من البلاد ، و من كان له بها مباشرة من الأعيان أو وقعة اشتهرت عنه فعدته من الفرسان ممن كانت وفاته من سنة ثمان وخمسين وستمائة ، وهي السنة التي اخذ بها هولاكو حلب وخربها ، ثم انشئت عمارتها من ذلك الحين وهلم جرا الى زمني ، ورتبتهم على حروف المعجم في الاسم واسم الأب والجد وان علا مهما أمكن وكذلك في حروف الاسم واسم الأب وان علا ليكون اسهل للكشف ، ولم ادع الاستيعاب بل ما وقفت عليه او علمت او غلب على ظني انه دخل حلب او معاملتها او كان من اهلها او ولد بها ، وكذلك النوازل والنوادر اذكرها في ترجمة من توفى في السنة التي اتفقت فيها ·

والمؤلف قد وفى ما التزم به كما تبين لي ذلك من تتبعه ، فعلى هذا لا يكون هذا التاريخ خاصاً بحلب بل هو تاريخ عام للبلاد السورية والمصرية والعراقية والحجازية والمغربية والرومية ، فتجد فيه من تراجم اعيان هذه البلاد كلها ممن توفي سنة ٦٥٨ الى سنة ٨٤٣ التي هي سنة وفاته مالا تجده في غيره ، وترى فيه تراجم السلاطين والامراء الذين تولوا البلاد المصرية والسورية بصورة مبسوطة بحيث يصلح ان يجمع منها كتاب واسع في اخبار هؤلاء في هذه المدة وتنقلاتهم في هذه

البلاد من امارة صغيرة في مصر إلى نيابة حماة فحمص فطرابلس فحلب فدمشق الى أمارة كبيرة في مصر، فهو على هذا تاريخ لهذه البلاد كلها، وهو مشحون بآثارهم في هذه البلاد، وبالمقارنة مع التاريخين الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة للحافظ ابن حجر المطبوع في الهند والضوء اللامع في أعيان القرن التاسع للحافظ السخاوي المطبوع في مصر تبين لي أن الكثير من التراجم جاءت فيهما وجيزة وهنا مطولة، كما أنه في بعض الاحيان نرى بعض التراجم مطولة في ذينك التاريخين، وهي عند ابن الخطيب مختصرة فلا يستغنى اذا بهذين التاريخين عن هذا .

وقد تكلمت على هذا التاريخ في مقدمة تاريخي (اعلام النبلاء (ص ٢١)، ومما قلته نقلاً عن الرضي الحنبلي مؤلف در الحبب في تاريخ حلب انه لما وصل الى حلب حافظ العصر الشهاب ابن حجر العسقلاني المصري سنة ست وثلاثين وثمانمائة طالع هذا التاريخ من المبيضة ثم من المسودة والحق فيه أشياء كثيرة كما تعرض لهذا في ديباجة تاريخه المشهور بانباء الغمر بابناء العمر واثنى على صاحبه وأفاد أن كلاً منهما سمع من صاحبه .

ما وقفت عليه من نسخ هذا التاريخ

(١) نسخة حلب في المكتبة الأحمدية

(٢) 〃 في برلين رقمها ٩٧٩١

(٣) 〃 في مدينة غوطا ٩٧٩٢

(٤) 〃 في لوندرة ٤٣٦

(٥) الجزء الثالث منه في مكتبة الأمة بباريس رقمها ٢١٣٩ هذا الجزء من نسخة في أربعة أجزاء ابتديء فيه بترجمة عبد الكريم بن أحمد المصري واختتم بترجمة محمد بن تمام الحميدي وهو في ١٥٠ ورقة .

(٦) نسخة في مكتبة لاله لي في استانبول في مجلدين رقمها ٢٠٣٦ و٢٠٣٧

(٧) نسخة في مكتبة خالص بك مستشار الخاصة في الآستانة وهي مكتبة خصوصية .

هذا ما وقفت عليه من نسخ هذا التاريخ في مكاتب العالم .

ومنذ سنتين زار حلب المستشرق الفاضل رايخ فاخبر أن العلامة المستشرق بروكلمن الالماني مؤلف آداب اللغة العربية وقف على ٢٢ نسخة من هذا التاريخ . واستبعد ان تكون هذه الثنتان والعشرون نسخة هي الدر المنتخب لابن خطيب الناصرية ، ويغلب على ظني أن بعض هذه النسخ هي الدر المنتخب الصغير المنسوب لابن الشحنة وهو على التحقيق للشيخ محمد بن أحمد الشهير بالملا الحلبي وقد تخلله زيادات من الشيخ إلى اليمن البتروني . وهذا طبع في المطبعة اليسوعية في بيروت سنة ١٩٠٩ ، والفرق بينهما أن ذاك في مجلدين ضخمين وبعض النسخ في أربعة أجزاء ، وهذا في جزء صغير تكلم فيه على حلب خاصة في ٢٥ باباً .

ونحن ندع تحقيق هذه الناحية إلى العلامة بروكلمن المومأ اليه .

والجزءان الموجودان في مكتبة الأحمدية الأول منهما تام وهو ٦٧١ صفحة بخط مقروء ، لكن فيه تحريف كثير ، وذلك يفيد أن الناسخ من العوام وكل صفحة ٢٥ سطراً ولا تاريخ في آخره .

والثاني أحسن خطاً وضبطاً ؛ لكن فيه النقص الذي قدمناه وبعض أسطر من بعض الصفحات ممحوة وهو في ٤٦٠ صفحة كل صفحة ٢٩ سطراً ولا تاريخ في آخره بل سقط من آخره ثلاث أو اربع اوراق ، وذلك عدا عما سقط منه قبل ذلك بما يكمل عشر اوراق ، وهو أقدم خطاً من ذلك وحاله يدل انه قد كتب في القرن العاشر الهجري .

محمد راغب الطباخ

شرح الشمقمقية

للسيد عبد الله كنون الحسني (صفحة ١٢١)

مطبعة مصطفى محمد بمصر

والشمقمقية هذه اسم ارجوزة قافية لابي العباس احمد بن محمد بن الوزان الحميري ، وعدة ابياتها ٢٧٥ بيتاً في النسيب والحماسة ، والحسود والحكم والامثال ومدح الشعر والسلطان ، وقد اعجب بهذه الارجوزة ادباء المغرب كثيراً فعارضها ابو عمرو الرباطي من ادباء القرن الثالث عشر ، وشرحها كثيرون منهم ابو عبدالله الجريري وصاحب الاستقصاء ، وهذا الشرح المطبوع بمصر ، وكانت هذه الارجوزة قد طبعت على الحجر ضمن مجموعة من المتون العلمية في مدينة فاس ١٣١٥ هـ .

والشمقمقية نسبة الى ابي الشمقمق الاصغر الذي لقب به ناظم هذه الارجوزة ، اما الاكبر فهو ذلك الشاعر الكوفي الماجن الذي نقرأ اخباره الظريفة في الاغاني والكامل والعقد الفريد ، وكان ناظم الشمقمقية نديماً لسلطان المغرب سيدي محمد بن عبد الله فكناه بابي الشمقمق لظرفه ومُلحه . ومطلع هذه الارجوزة :

مهلاً على رسلك حادي الاينقِ ... ولا تكلفها بما لم تطقِ

ويقول في خاتمتها :

اليكها ارجوزة حُسانة ... لمثلها ذو ادب لم يسبقِ
ما لجرير وجميل مثلها ... في غزل وفي نسيب مونقِ
فلو رآها الاصمعي خطها ... كي يستفيد بسواد الحدقِ

وقد سما الناظم في بعض ابيات ارجوزته الى درجة المطبوعين ، وأسفَّ احياناً الى دركة المتكلفين ، واكثر فيها من الغريب في وصف البيد والقفار والحيوان والاطيار والأشجار ، كما اكثر من اسماء الاعلام والوقائع التاريخية محتذياً في ارجوزته حذو ابن دريد في مقصورته ، وقد اوضح الشارح لغة الارجوزة واخبارها ايضاحاً كافياً صحيحاً ، ولولا ما فيها من اغلاط الطبع والسهو لكملت فائدتها ، والضبط في مطابع الشرق ما زال معوزاً .

التنوخي

الادباء العشر

للاستاذين اسعد طلس وابراهيم الكيلاني

من منشورات المكتبة العمومية بدمشق ، صفحاته ٤٩٦

يسأل طالب الشهادة التجهيزية (البكالورية) في خاتمة كل سنة مدرسية عن عشرة ادباء تختارهم لدراسته وزارة المعارف ؛ وهؤلاء العشرة عرضة للتبديل من سنة الى اخرى ، وقد اعتاد مدرسو الأدب في التجهيزيات ، ان يساعدوا طلابهم تأليف رسائل عن كل من هؤلاء العشرة ، كما فعل الاستاذان السيد خليل مردم بك والسيد سليم الجندي من اعضاء المجمع العلمي ، فقد وضع الأول رسائله (ائمة الادب) في الفرزدق والجاحظ وابن المقفع وابن العميد وابن عباد ، وانشأ الثاني رسائله في امريء القيس وابن المقفع والامام علي .

وغير هذين المؤلفين قد نحا منحى آخر بتأليف كتاب يجمع الادباء العشرة كما فعل الاستاذ ممدوح حقي في كتابه (ادباء البكلوريا) والاستاذ خلدون الكناني والاستاذ حنا نمر في كتابيهما والاستاذان اسعد طلس وابراهيم الكيلاني في (الادباء العشر) الذي كتبنا عنه هذه الكلمة ؛ غير ان مثل هذا المنحى لا يتسع لاتمام البحث عن العشرة ، ويضطر معه المؤلف الى جمع المتفرق او الايجاز المخل احياناً ، فيجيء كتابه بعيداً عن البحث الذاتي المستقل ، مما لا يكشف حقيقة او ينير غامضاً ، ولا يهتدي به الطالب الى مواقع الحسن او القبح من التعبير ، والى مواطن الصحة او الخطأ من التفكير ، فلا يتبين لذلك حقيقة الشاعر او الناثر لتلك الأحكام التي تنطبق على كثير من الادباء ولا تريه منه الا صورة مبهمة سريعة الانطماس والدثور ، لا حياة فيها ولا نور .

وقد حاول المؤلفان لكتاب (الادباء العشر) ان يفيدا في هذه السنة طلاب الشهادة التجهيزية ، وان يبحثا في زمن قصير عن العشرة الادباء ، فكانا يكتبان الابحاث ليلاً ، ويقدمانها للمطبعة نهاراً ليتمكنا من انجاز كتابهما قبل انتهاء السنة

المدرسية ، فوقع فيه لهذه العجلة الاضطرارية اغلاط في النصوص وفي العروض والرسم، وبعض آراء لم ينضجها البحث المحتاج الى اطالة النظر ، و كثرة التوقف ومراجعة المظانّ وتمحيصها .

وقد اغفل المؤلفان بهذه العجلة ان يحللا لكل اديب قطعة من شعره او نثره ليقع الطالب على مواطن الحسن او القبح كما ذكرناه آنفاً ، وليتدرب على طريقة التحليل العلمي ، ولعلهما قد تركا هذا العمل الخطير للأستاذ المدرس ، وما كل مدرس بقادر على ان يوفي ذلك حقه .

ومن العجلة احتجاج المؤلفين لصحة اسم الكتاب (الادباء العشر) لا العشرة ، بقولهما في آخر صفحة منه ما نصه : (ولا بد لنا في الختام من ارشاد الذين انتقدوا عنوان كتابنا الى مراجعة بحث العدد في حاشية ابن عقيل على شرح ألفية ابن مالك ، وكتاب أوضح المسالك للشيخ المراغي فان فيهما نصاً عزيز النقل فليحفظوه!) مع ان ابن عقيل لا حاشية له ، فهو شارح الالفية ، والمحشي هو الخضري ، وكتاب اوضح المسالك أو التوضيح هو لابن هشام ، والمراغي قد نشره نشرةً جديدةً باسم تهذيب التوضيح ؛ هذا وان ما نقله الامام النووي في حاشية الخضري عن شرح الكافية للسيد الصفوي في تجويز تذكير العدد وتأنيثه بعد المعدود موضع نظر ، لان الناقل والمنقول عنه ليسا من أئمة النحو ، وما ورد من الكلام الذي يصح الاستشهاد به لا يقبل مثل هذا التجويز .

أما تراجم الكتاب لادبائه العشرة فكافية للطالب، ومخففة من عناء بحثه عن اخبارهم واخلاقهم مما يعينه على فهم آثارهم الادبية ، وفي خاتمة كل بحث بيان مفيد للمصادر التي تعين الدارس على التتبع والاستقصاء ، فعسى ان يتلافى المؤلفان هذه النواقص في الطبعة الثانية .

التنوخي

باكورة في تعاليم ابن تيمية الاجتماعية والسياسية

تأليف السيد هنري لاوست

H. Laoust: Essai sur les doctrines sociales et politiques de Taki-d-din Ahmad B. Taimya, Le Caire. 1939

نفذ مؤلف هذا الكتاب الى روح شيخ الاسلام ابن تيمية ، وغاص كما يغوص العالم الذي لامأرب له غيرخدمة الحقائق في كتب هذا الامام، وهي كثيرة جداً واكثرها مما تسط عليه غيرالدهور ، فاستخرج لآلئ بديعة في منازع ابن تيمية في الاجتماع والسياسة تمثلها وكتبها باسلوب عال باللغة الفرنسية ، ومعلوم أن تقي الدين كان يجمع الى العلم الديني السياسة ، ويعرف زمنه كما يقال في وصف العارفين، يعرفه معرفة اعظم رجال الدولة ، فدرس آرائه ومذهبه في الحقيقة درس لما حوت الشريعة الاسلامية في أجمل صورها واصدق مصادرها .

ان الكلام على ما خاض المؤلف عبابه يحتاج إلى بحث طويل ، ومن امتع ما قرأنا فيه تلطفه في التعليق على آراء شيخ الاسلام تعليقاً مهماً خالف رأي المؤلف ، فهو لا يخرج عن حدود أرقى المؤلفين في تأليفهم .

ولو كتب لكل من يكتب اطروحته أن يمعن في درسها كما امعن الاستاذ لاوست في بحث ابن تيمية خلفوا لنا مجموعة من الابحاث يعتمد عليها في الموضوعات التي عالجوها ، ولكن غاية معظم من كتبوا اطروحاتهم من ابنائنا كانوا يقصدون بها خدمة انفسهم بنيل شهادة العالمية لا خدمة العلم كما وقع لصديقنا لاوست، وانا لنشكر المؤلف على هذه التحفة الثمينة ونرجو ان يطرد صدور تآليفه على هذا المنهاج خدمة لعلم لا تكاد تعرف اكثر حقائقه في بلاد الغرب وبنشره بهذا الاسلوب الممتع قطع لألسن من يهرفون عن الإسلام بما لا يعرفون، ولا غضاضة عليهم في ذلك وما القصور

الا منا نحن ورثة هذا التراث العظيم ، وباهمالنا وتركنا المجال خالياً لمن يقولون فينا وفي تعاليمنا ما يقولون ، وقد نعترض على من يتوفر على الدرس فيخرج ما يهديه إليه بحثه للناس ، وليس لنا من برهان الا ما يعرض لخاطرنا بادئ بدء من رأي فطير غير نضيج .

محمد كرد علي

